فريديريك بيغبيديه

الحب يدوم ثلاث سنوات

مكتبة ٦٣٦

سنة من العشق. سنة من الحنان. سنة من الملل.

المركز الثقافي العربي

مكتبة | 636

فريديريك بيغبيديه

الحبّ يدوم ثلاث سنوات

الكتاب
الحبّ يدوم ثلاث سنوات
تأليف
فريديريك بيغبيديه
ترجمة
حسين عمر
الطبعة
الأولى، 2019
الترقيم الدولي:
ISBN: 978-9953-68-917-3
جميع الحقوق محفوظة
© المركز الثقافي العربي
الناشر
المركز الثقافي العربي
الدار البيضاء ـ المغرب
ص.ب: 4006 (سيدنا)
42 الشارع الملكي (الأحباس)
هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651
فاكس: 212 522 305726+
Email: markaz.casablanca@gmail.com
بيروت ـ لبنان
ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء
شارع جاندارك ـ بناية المقدسي
هاتف: 01 750507 ـ 01 352826
فاكس: 961 1 343701+
Email: cca_casa_bey@yahoo.com

العنوان الأصلي للرواية:
Frédéric Beigbeder
L'amour dure trois ans
© 1997 Frédéric Beigbeder
© Éditions Grasset & Fasquelle, 1997
All rights reserved

مكتبة
t.me/t_pdf

صورة الغلاف:
AGENCE BLUE © 2011 THE FILM - AKN PRODUCTIONS - EUROPACORP - FRANCE 2 CINEMA - SCOPE PICTURES

فريديريك بيغبيديه

مكتبة | 636

الحبّ يدوم ثلاث سنوات

رواية

ترجمة: حسين عمر

المركز الثقافي العربي

إلى كريستين دو شاستينييه
وجان-ميشيل بيغبيديه، فلولاهما
لما رأى هذا الكتاب النور
(ولا أنا).

«أنا أتحدّث مع سُلطة الفشل».

فرانسيس سكوت فيتزجيرالد

«ماذا إذاً! نعم إذاً! يجب ألّا نعقّد الأمور!
يجب أن نقول الأشياء كما هي على حقيقتها.
نحبّ ومن ثمّ لا نعود نحبّ».

فرانسواز ساغان
(أثناء حفلة عشاء في منزلها في عام 1966
مع بريجيت باردو وبيرنار فرانك).

I

الأواني المستطرقة

بمرور الوقت لا نعود نحبّ

الحبّ معركة خاسرة سلفاً.

في البداية، يكون كلّ شيء جميلاً، حتى أنت. تُصاب بالدهشة ولا تصدّق أنّك عاشقٌ إلى ذلك الحدّ. يحمل كلّ يوم حمولته الخفيفة من المعجزات. تتصوّر أن لا أحد على وجه الأرض قد عرف أبداً هذا القدر من السعادة. السعادة موجودة وبسيطة، فهي بكلّ بساطة عبارة عن وجه. تبتسم لك الدنيا أينما حللت. طوال عامٍ كامل، تكون الحياة سلسلة متتابعة من الصباحات المشمسة حتى حينما يتساقط الثلج في فترات ما بعد الظهيرة. تكتب كتباً، وتتزوّج بأسرع ما يمكن، فما الداعي للتفكير عندما يكون المرء سعيداً؟ التفكير يجعل المرء تعيساً؛ ولذلك يجب أن تكون الغلبة للحياة.

في السنة الثانية، تبدأ الأمور تتغيّر تدريجياً فتصبح حنوناً، بعد أن كنتَ عاشقاً، وتغدو فخوراً بالتفاهم السائد في حياتك الزوجية، إذ تفهم على زوجتك «بنصف كلمة»، وتفرح أيّما فرح بكونك لا تحتاج إلى أن تقول سوى كلمةٍ واحدة. يعتبر الناس الذين تصادفهم في الشارع زوجتك أنّها أختك، فيداعب هذا الأمر مشاعرك لكنّه يؤثّر فيك. تبدأ بالتقليل من ممارسة الحبّ مع زوجتك لكنّك غالباً لا تعتبر هذا أمراً خطيراً، إذ تكون على قناعة أنّ حبّك يتوطّد كلّ يوم ويصبح أكثر رسوخاً في حين أنّ نهاية العالم تقترب. تدافع عن الزواج أمام أصدقائك وزملائك العُزَّاب الذين لا يعودون يتعرّفون عليك. بل أنت بنفسك، تُرى هل تتعرّف على ذاتك حينما تلقي الدرس الذي حفظته عن ظهر قلب، ممتنعاً عن النظر إلى الآنسات النَّضِرات اللواتي يُنِرْنَ الشارع؟

في السنة الثالثة، لا تعود تُحجم عن النظر إلى الآنسات النَّضِرات اللواتي ينرن الشارع. ولا تعود تتكلّم مع زوجتك. تمضي ساعات كاملة معها في المطعم بالإصغاء إلى أحاديث الجالسين إلى الطاولات المجاورة. تبدأ بالإكثار من الخروج من البيت والعودة في وقتٍ متأخّر لكي تتجنّب واجبكَ الزوجي، وسرعان ما تأتي اللحظة التي لا تُطيقُ فيها زوجتك، إذ تكون قد وقعت في حبّ امرأة أخرى. هناك مسألة واحدة فقط لم تخدع نفسك بشأنها وهي أنّ الحياة هي صاحبة الكلمة

الفصل. في السنة الثالثة، ثمّة خبر سارّ وآخر سيئ. الخبر السارّ هو أن زوجتك تهجرك وهي مشمئزّة. أمّا الخبر السيئ، فهو أنّك تبدأ بتأليف كتابٍ جديد.

2

طلاق احتفالي

لكي يُجيد المرء القيادة وهو ثملٌ، يكفيه أن يختار المرور بين العمارات. زاد مارك مارونييه من سرعة دراجته السكوتر. ناور بين السيارات التي أطلقت أضواء التحذير وصفاراتها حينما كانت الدرّاجة تسير على مسافة قريبة جدّاً منها، مثلما يحدث في أثناء مراسيم زفاف القرويين السذّج والأفظاظ. ومن سخرية القدر أنّ مارونييه كان يحتفل بطلاقه الذي وقع لتوّه. في هذا المساء، قام بالجولة رقم 5 مكرّر من دون أن يضيّع وقته. في الحقيقة، كان التجوال على خمسة محلّات في سهرة واحدة (كاستل - بودا - باس - كاباريه - كوين) أمراً صعباً، فما بالكم بالجولة رقم 5 مكرّر والتي كما يشير اسمها جرت مرّتين في ليلة واحدة.

يخرج في أغلب الأحيان وحده. المتلهّفون إلى حياة اجتماعية ثرّة هم أشخاصٌ منعزلون، تائهون في فيض

المعارف الغامضة والمشوّشة، يسعون إلى إثبات ذاتهم وتهدئة روعهم بالمصافحات الحماسية ويعتبرون كلّ قبلة جديدة بمثابة علامة للنصر. يوهِمون أنفسهم بأهميةٍ ومكانةٍ اجتماعيةٍ من خلال إلقاء التحية على المشاهير، في حين أنّهم هم بأنفسهم لا يفعلون أيّ شيء. يرتّبون أمورهم لارتياد الأماكن الأكثر صخباً لكي لا يكون بوسعهم المشاركة في أيّ حديث. فالحفلات والأعياد هي بمثابة فرصة للرجل لكي يتمكّن من إخفاء أفكاره. القليل من الناس يعرفون بقدر ما يعرف مارك عن العالم والقليل منهم يشعرون بالوحدة مثلما يشعر هو بها.

هذا المساء، تختلف الحفلة عن كلّ ما سبَقَها من حفلات. إنّها حفلة طلاقه! مرحى! بدأ بشراء قارورة شراب من كلّ محلٍّ ارتاده وشرع في تجرّع كؤوسٍ منها.

مارك مارونييه، أنت مَلك السهرة، يحبّك كلُّ مَن فيها، أينما حَلَلت، يستقبلك أصحاب الحانات بالقبلات الحارّة، تتجاوز أرتال المنتظرين وتحظى بأفضل طاولة، تعرف أسماء عائلات كلّ الناس، وتضحك لكلّ نُكَتهم (وخاصّة الأقلّ إثارة للضحك)، يعطونك المخدّرات مجّاناً، ويلتقطون الصور معك في كلّ مكانٍ ومن دون سبب. إنّه أمرٌ لا يُصدّق ما وصلتَ إليه من نجاحٍ اجتماعي خلال بضع سنواتٍ ضمن وقائع الحياة الاجتماعية الباذخة! أغنى رجل في الكون! «وجه اجتماعي

فاعل»! لكن أخبرني الآن، اشرح لي الأمر قليلاً، لماذا رحلتْ زوجتك؟

تمتم مارك وهو يدخل إلى حانة «باس»:

- لقد انفصلنا بسبب خلافٍ مشترك.

ثم أردف قائلاً:

- تزوّجتُ آن لأنّها كانت ملاكاً - وهذا هو بالضبط سبب طلاقنا. ظللتُ أعتقدُ أنني أنشد الحب إلى أن جاء اليوم الذي أدركتُ فيه أنّ كلّ ما كنتُ أنشده لم يكن سوى الهروب من الحبّ.

بعد أن استغرق في الصمت لبرهة، غيّر الموضوع قائلاً:

- اللعنة، الفتيات هنا تُشرب كمشروبٍ لذيذ، كان عليّ أن أغسل أسناني قبل المجيء إلى هذا المكان. هيه! يا آنسة، أنتِ جميلة مثل قلب. هلّا سمحتِ لي أن أنزع ثيابكِ، من فضلك؟

هكذا هو مارك مارونييه: يتظاهر بأنّه مثيرٌ للاشمئزاز في بذلته المخملية الملساء لأنّه يحسّ بالخجل من أن يكون لطيفاً ووديعاً. بلغ للتوّ الثلاثين من عمره: إنّها السنّ المحيّرة التي يكون المرءُ فيها أكبر من أن يكون شابّاً وأصغر من أن يكون عجوزاً. يفعل كلّ شيء لكي يبدو كما يُشاع عنه حتى لا يُخيّب أمل أحد. ولفرط رغبته في تضخيم سجلّه الشخصي، غدا شيئاً فشيئاً صورة كاريكاتيرية عن نفسه. ولأنّ هذا الأمر

يُرهقه في سعيه لإثبات كونه لطيفاً وعميق التفكير، يلجأ إلى لعب دور الأشخاص الأشرار السطحيين في تفكيرهم، من خلال تبنّي هذا السلوك الفوضوي، بل المُحزن والمؤلم. وبالتالي الخطأ خطأه إن لم يأتِ أحدٌ لمواساته، حينما يصرخ على حلبة الرقص قائلاً: «مرحى! لقد طلّقتتتتت». وحدها الإشعاعات الليزرية تخترق قلبه مثل سيوفٍ لامعة.

سرعان ما تحين اللحظة التي يغدو فيها وضع قدمٍ أمام أخرى عملية معقّدة. يمتطي مترنّحاً دراجته السكوتر. الليلُ باردٌ وقارس. يشعر مارك، وهو يقود بسرعة، أنّ دموعاً تسيل على خدّيه. هذا بكلّ تأكيد بسبب الرياح القوية. تبقى جفونه متحجّرة بلا حراك ولا يضع قناعاً واقياً على رأسه. دولشي فيتا؟ أيّ دولشي فيتا؟ أين يقع هذا المحلّ؟ هناك الكثير من الذكريات، والكثير من الأشياء التي ينبغي نسيانها، إنّه لَعملٌ شاقّ أن يمحو كلّ هذا الماضي، وسيكون عليه أن يعيش من جديد الكثير من اللحظات السعيدة والجميلة لكي يحلّها محلّ سابقاتها.

انضمّ إلى أصدقاء له في حانة «بارون» في جادّة مارسو. الشامبانيا ليست رخيصة هنا، والفتيات أيضاً. إذا أردتَ على سبيل المثال أن تقضي ليلة مع فتاتين، سيكلّفك ذلك 6000 فرنك في حين أنّ فتاة واحدة تكلّفك 3000 فرنك. لا تُجري الفتاتان تخفيضات على تعرفتهما وتطلبان الدفع نقداً؛ ولذلك يخرج مارك بحثاً عن النقود في جهاز سحب الأموال

باستخدام البطاقة الزرقاء؛ فتسحبانه إلى الفندق لقضاء ليلة لم تحقّق له الحدّ الأدنى من المتعة المرجوّة.

لدى عودته، في الصباح الباكر لليوم التالي، سمع في سيارة الأجرة كريستوف وهو يغني:

«للكحول مذاقٌ مرّ
اليوم، كان أمس
والأوركسترا في لباسٍ
حائلٍ قليلاً
تعزف فراغ حياتي
المفكّكة».

(كريستوف، **الوسيم غريب الأطوار**)

قرّر أنّه من الآن وصاعداً سوف يبحث دائماً عن بدائل للتسلية والمتعة قبل خروجه من البيت لكي لا يستهويه القيام بأشياء تافهة.

3

مهجوراً على الشاطئ

صباح الخير للجميع، أنا الكاتب. أرحّب بكم أطيب ترحيبٍ في دماغي، واغفروا لي تطفّلي عليكم. انتهى زمن الغشّ، فقد قرّرتُ أن أكون شخصيتي الرئيسة. عادةً، ما يحدث لي لا يكون خطيراً أبداً. لا أحد يموت من حولي. على سبيل المثال، لم تطأ قدماي ساراييفو أبداً. تقع كوارثي في المطاعم والملاهي الليلية وفي الشقق المفروشة المزخرفة. الشيء الأكثر إيلاماً الذي حصل لي في الفترة الأخيرة هو أنني لم أُدعَ إلى عروض مصمّم الأزياء البريطاني جون غاليانو. ومن ثمّ، فجأةً، ها أنا ذا أموت كمداً. لقد عشتُ المرحلة التي كان كلّ أصدقائي يشربون فيها ومن ثمّ المرحلة التي كان كلّهم يتعاطون فيها المخدّرات ومن ثمّ المرحلة التي كانوا يتزوّجون فيها والآن أجتاز المرحلة التي يُطلّقون فيها جميعهم زوجاتهم قبل أن يموتوا. ومع ذلك يحدث كلّ هذا في أماكن مَرِحَة جداً، كما يحدث هنا، في «لافوال روج»، على شاطئٍ

من بلدة سان تروبيه حيث الجوّ حارٌّ جدّاً، تتعالى موسيقى اليورودانس في الحانة، وتُرشّ قوارير من شامبانيا كريستال روديريه على أجساد الفتيات. أمّا أنا، فأكون محاصَراً بالضحكات المصطنعة. أرغب في الغرق في البحر لكن هناك الكثير من المزاليج.

كيف استطعتُ أن أدَع المظاهر تتحكّم بنمط حياتي إلى هذه الدرجة؟ يُقال غالباً «يجب إنقاذ المظاهر». أمّا أنا فأقول يجب اغتيال المظاهر لأنّ هذه هي الوسيلة الوحيدة للخلاص والنجاة.

الشخص الأكثر تعاسة الذي صادفته

في أثناء فصل الشتاء، هناك في باريس أمكنة تكون درجة الحرارة فيها أكثر برودة من سواها. عبثاً يشرب فيها الناس الكثير من المشروبات الكحولية القوية، فالحال تبدو كما لو أنّ عاصفة ثلجية تهبّ حتى في داخل الحانات. يحلّ العصر الجليدي مبكّراً، وحتى الجماهير تجعلك ترتجف وتشعر بالقشعريرة.

فعلتُ الأشياء كما كان عليّ أن أفعل: فقد ولدتُ في بيئة سليمة، وذهبتُ إلى المدرسة في ثانوية مونتين ومن ثمّ في ثانوية لويس لوغران، ودرستُ الدراسات العليا في معاهد التقيتُ فيها بأناسٍ أذكياء، ودَعَوْتهم إلى الرقص وذهب بعضهم إلى حدّ مَنحي فرصة عملٍ، وتزوّجتُ أجمل فتاةٍ عرفتها. لماذا الطقس هنا باردٌ إلى هذه الدرجة؟ إلى أيّ درجة

خدعتُ نفسي؟ أنا لم أطلب شيئاً أفضل من إسعادك؛ فكَوني كما يجب أن أكون لم يكن يزعجني كثيراً. لماذا أنا أيضاً ليس لي الحق في ذلك؟ لماذا، بدل السعادة البسيطة التي وُعِدتُ بها، لم أجد سوى إهمالٍ وتدهورٍ معقّد؟

أنا رجل ميت. أستيقظ كلّ صباح مع رغبة لا تُطاق في النوم. ألبس الأسود لأني في حالة حداد على نفسي. أرتدي لباس الحداد على الرجل الذي كان يمكن أن أكونه. أمشي بخطى ثابتة في شارع «الفنون الجميلة»، الشارع الذي توفي فيه أوسكار وايلد، مثلي. أذهب إلى المطعم لا لكي أتناول شيئاً من الطعام. يَستاء النذُل مني لأنني لا أقرَبُ أطباقهم. ولكن، أنتم، هل تعرفون الكثير من الموتى الذين ينهون الطبق الرئيس وهم يتلمّظون؟

كل ما أشربه يكون على معدة فارغة. والأمر الإيجابي في ذلك، هو بلوغ الثمالة بسرعة. أمّا الأمر السلبي فيه، فهو إصابتي بالقرحة في معدتي.

لم أعُد أبتسم أبداً، فهذا فوق قدراتي. أنا رجلٌ ميت ومدفون. أنا لن أنجب أطفالاً، فالأموات لا يتكاثرون. أنا رجل ميت يصافح الناس في المقاهي. أنا بالأحرى ميتٌ ودود وشديد التأثّر بالبرد. أعتقد أنني الشخص الأكثر تعاسة الذي لم أصادفه أبداً.

في فصل الشتاء، حينما تنخفض درجة الحرارة في باريس إلى ما دون الصفر، يحتاج الكائن البشري إلى قاعات خلفية مُضاءة في الليل. هناك، مختبئاً وسط القطيع، يمكنه في نهاية المطاف أن يبدأ في الارتعاش.

مكتبة
t.me/t_pdf

5

تاريخ انتهاء النضارة

يمكن للمرء أن يكون طويل القامة وأسمر البشرة ويبكي. ولحدوث ذلك، يكفي فقط أن يكتشف المرء فجأةً أنّ الحبّ يدوم ثلاث سنوات. إنّه ذاك النوع من الاكتشاف الذي لا أتمنّاه لألدّ أعدائي، وهذا مجرّد تعبير مجازي لأنه لا عدوّ لي في الواقع. فالمتكبّرون والمزعجون لا أعداء لهم، ولذلك يتحدّثون بالسوء عن الجميع: وذلك في مسعى منهم لكسب عدوٍّ.

تعيش البعوضة يوماً واحداً، والوردة ثلاثة أيّام. يعيش القطّ ثلاث عشرة سنة، والحبّ ثلاث سنوات. هذه سنّة الحياة. هناك في البداية سنة من العشق، ثمّ سنة من الحنان وأخيراً سنة من الملل.

في السنة الأولى، يقول العاشق: «إذا هجرتِني فسأقتل نفسي».

في السنة الثانية، يقول: «إن تهجريني، فسأتعذّب لكنّي سأتغلّب على ذلك».

أمّا في السنة الثالثة، فيقول: «إن تهجريني، فسأفتح زجاجة الشامبانيا».

لا أحد يحذّرك من أنّ الحبّ يدوم ثلاث سنوات. تقوم مؤامرة الحبّ على سرٍّ محفوظٍ جيّداً. يجعلونك تتوهّم أنّ الحبّ يدوم مدى الحياة في حين أنّه، كيميائياً، يتلاشى ويختفي بعد ثلاث سنوات. قرأت ذلك في مجلّة نسوية: الحبّ نزوة عابرة ناجمة عن خليط من هرمونات الدوبامين والنورادرينالين والبرولاكتين واللوليبيرين والأوكسيتوسين. إنّه عبارة عن جزيء صغير، المركب العضوي الأحادي الآمين فينيثيلامين (PEA)، الذي يحفّز مشاعر الغبطة والهيجان والنشوة. والحبّ من النظرة الأولى هو عبارة عن الخلايا العصبية للجهاز العصبي المركزي وقد تشبّعت بمركّب فينيثيلامين. والعاطفة هي عبارة عن هرمونات الأندروفين (أفيون الزوجين). يخدعك المجتمع إذ يبيعك الحبّ الكبير في حين أنّ العلم قد برهن أنّ هذه الهرمونات تكفّ عن العمل بعد مضي ثلاث سنوات.

في الواقع، الإحصائيات تتحدّث عن نفسها: فحالة

العاطفة تدوم وسطياً 317,5 يوماً (وهنا أتساءل جدّياً في نفسي عمّا يحدث في نصف اليوم الأخير...)، وفي باريس، ينفصل زوجان عن زوجتيهما من أصل ثلاثة خلال الأعوام الثلاثة التي تعقب حفلة عقد قرانهما. وفي الحوليات السكانية الصادرة عن منظمّة الأمم المتّحدة، يطرح اختصاصيو التعداد السكاني أسئلة حول حالات الطلاق منذ عام 1947 على سكان اثنين وستين بلداً عبر العالم، ويتبيّن من تلك الإحصائيات أنّ أغلبية حالات الطلاق تقع خلال السنوات الأربع التي تلي الزواج (الأمر الذي يعني أنّ البدء بالإجراءات القانونية لمعاملات الطلاق يتمّ خلال نهاية العام الثالث من الزواج). في فنلندا، وفي روسيا، وفي مصر، وفي جنوب أفريقيا، أجرت منظمة الأمم المتّحدة دراسات عن مئات الملايين من الرجال والنساء الذين يتحدّثون بلغات مختلفة ويمارسون مِهَناً مختلفة ويرتدون أزياء مختلفة ويتلاعبون بالعملات ويرتّلون صلوات ويخافون من عفاريت مختلفة ويغذّون تشكيلة لامتناهية من الآمال والأحلام... يتعرضون جميعاً لصدمة الطلاق بعد ثلاث سنوات تماماً من الحياة الزوجية المشتركة. هذا الابتذال ليس سوى إهانةٍ إضافية.

ثلاث سنوات! الإحصائيات، والكيمياء الحيوية، وتجربتي الشخصية، كلّها تبرهن على أنّ مدّة الحبّ دائماً متطابقة وهي ثلاث سنوات لا غير. تطابقٌ مزعج ومثير

للحيرة. لماذا ثلاث سنوات وليس سنتين، أو أربع سنوات، أو ستمئة سنة؟ بحسب رأيي الشخصي، هذا الأمر يؤكّد وجود هذه المراحل الثلاث التي لطالما ميّز بينها كلٌّ من ستاندال، وبارت، وباربارا كارتلاند: العاطفة والحنان والملل، وهي دورة من ثلاثة أطوار يدوم كلّ واحدٍ منها سنة واحدة، وهو مثلّثٌ مقدّسٌ بدرجة الثالوث المقدّس نفسها.

في السنة الأولى، نشتري قطع الأثاث.

في السنة الثانية، نغيّر مكان قطع الأثاث.

في السنة الثالثة، نتقاسم قطع الأثاث.

تلخّص أغنية فيري كلّ شيء حينما تقول: «مع مرور الوقت، لا نعود نحبّ». من تكون حتى تجرؤ على أن تقارن نفسك بالغدد وبالنواقل العصبية التي سوف تدعك تسقط حتماً في الموعد المحدّد؟ يمكننا عند اللزوم أن نناقش غنائية الشاعر، ولكنّ الجدال بالضدّ من العلوم الطبيعية وعلم السكان سيكون محكوماً بالفشل المؤكّد.

6

حافة الانهيار

وصلتُ إلى بيتي في حالة يُرثى لها. اللعنة، يا لها من تعاسة أن يصل شخصٌ في عمري إلى حالٍ مزرية كهذه! تبدأ طقوس الإسراف في الشراب في سنّ الثامنة عشرة، وحينما يبلغ المرء الثلاثين من عمره يصبح مثيراً للشفقة. ابتلعتُ نصف حبّة من حبوب النشوة لكي أتبادل القُبَل مع نساء مجهولات. ومن دون ذلك، لكنتُ في غاية الخجل لتجريب حظّي. عدد الفتيات اللواتي لم أتقرّب منهن خشية من الصدّ لا يُعدّ ولا يُحصى. وهذا ما أضفى عليّ هالة من السحر، لا أدري إن كنتُ فعلاً أمتلكه.

في حانة «كوين»، سألتني فتاتان جميلتان شقراوان ثملتان:

- هل نذهب إلى بيتك أم إلى بيتنا؟

بعد أن تغزّلت بهما، أجبتُ بلهجة المتفاخر المتباهي:

- ستذهبان أنتما إلى بيتكما وأنا إلى بيتي. قمتُ هذا

المساء بالطلاق من زوجتي ولذلك أخشى كثيراً من الفشل في أن أكون صُحبة ممتعة.

وصلتُ بدراجتي السكوتر إلى شقّتي فوجدتها خالية. قبَضَت يدُ القلق على معدتي. ما الجدوى من قضاء المرء السهرة في الهروب من ذاته إذا كان ذلك لِتَلْحَقَ به ذاتُه في نهاية المطاف إلى بيته؟ عثرتُ في جيوب معطفي على بقايا من الكوكايين ضمن مغلّفٍ. استنشقتها من على ورق المغلّف نفسه فقضى ذلك على الكآبة التي كانت تستبدّ بي. ظلّت آثار المسحوق الأبيض على أطراف أنفي. لم أعُد أشعر بالنعاس، فقد أشرقَت شمس الصباح وسوف تنهمك فرنسا في العمل. وفي أثناء ذلك، سوف لن يتحرّك مراهقٌ معاق قبل انقضاء ساعات. كنتُ منتشياً للغاية بفعل المادة المخدّرة وغير قادرٍ على النوم أو القراءة أو الكتابة، فبقيتُ أحدّق في سقف الغرفة وأنا أكزّ على أسناني. بوجهي المحمرّ وأنفي المبيضّ، رأيتُ في المرآة شبح مهرّجٍ بالأبيض والأسود.

لن أذهب إلى العمل اليوم. يعتريني شعورٌ بالفخر من أنني رفضتُ حفلة من المتعة مع فتاتين جميلتين غداة طلاقي من زوجتي. لقد سئمتُ من هؤلاء الفتيات اللواتي يمكن للرجل أن يمضي ليلة معهن ولكنّه لا يُطيق الاستيقاظ إلى جانبهن.

باستثناء قِدرٍ طافحٍ بالحليب، ليس هناك على وجه البسيطة مَن هو أكثر شؤماً منّي.

7

وصفة لتصبح أفضل حالاً

كرّر دائماً هذه الجمل الثلاث:

1) لا وجود للسعادة.
2) الحبّ مستحيل.
3) لا شيء خطير.

من دون مُزاح وجدّياً، يبدو هذا الأمر سخيفاً، ولكن هذه الوصفة ربّما تكون هي التي أنقذت حياتي حينما وصلتُ إلى الحضيض. حاولوا أن تجرّبوها حالما تُصابون في المرّة القادمة بانهيار عصبي. أنا أوصيكم بها.

وهذه أيضاً قائمة بالأغاني الحزينة التي ينبغي الاستماع إليها لكي تتمكّنوا من الصعود والخروج من الهوّة السحيقة: أغنية April come she will للثنائي سايمون وغارفنكل (20

مرّة)، وأغنية Trouble للمغني كات ستيفنسن (10 مرّات)، وأغنية Something in the way she moves لجيمس تايلور، وأغنية Et si tu n'existais pas لجو داسان (5 مرّات)، وأغنية Sixty years on ثم Border Song لإلتون جون (40 مرّة)، وأغنية Everybody hurts لفرقة آر إي إم (5 مرّات)، وأغنية Quelques mots d'amour لميشيل بيرجيه (40 مرّة ولكن لا تبالغ في التباهي بنفسك)، وأغنية Memory Motel لفرقة الرولينغ ستونز (8 مرّات ونصف)، وأغنية Living without you لراندي نيومان (100 مرّة)، وأغنية Caroline No لفرقة ذا بيتش بويز (600 مرّة)، وسوناتا La Sonate à Kreutzer للودفيغ فان بيتهوفن (6000 مرّة). هذا مفهوم جيّد عن تشكيلة الأغاني، ولطالما كان شعاري:

«التشكيلة المُكرِبة،
التشكيلة التي تثير الاكتئاب».

لمن فاتتهم البداية

حتى بلوغي سنّ الثلاثين، كنتُ لا أزال لا أستطيع النظر إلى عيني فتاةٍ جميلة من دون أن أحمرّ خجلاً. من المروّع أن يكون المرء حسّاساً وعاطفيّاً إلى هذه الدرجة. كنتُ متخماً جدّاً بحيث لا أستطيع أن أقع فعلاً في حبّ امرأة، ولكنني كنتُ أيضاً حسّاساً لدرجة أنني لم أستطِع البقاء لامبالياً. باختصار، كنتُ ضعيفاً جدّاً لكي أبقى متزوّجاً. لكن أيّ ذبابة لسعتني؟ بالتأكيد، سوف يكون الإغراء كبيراً لكي يُعيدك إلى الجزءين السابقين، ولكن في نهاية المطاف لن يكون الأمر منصِفاً إذا ما علمنا أنّ هذه الروائع الرومانسية قد تعرّضت للنقد بقسوة بعد فترة قصيرة من نيلها النجاح الباهر والمكانة المرموقة.

دعونا إذاً نلخّص الحلقات السابقة: كنتُ مخلوقاً مستهتراً ونتاجاً خالصاً لمجتمعنا المخملي عديم الفائدة. ولدتُ في

الحادي والعشرين من شهر سبتمبر من عام 1965، بعد عشرين عاماً من أوشفيتز(*)، في اليوم الأوّل من فصل الخريف. جئتُ إلى الدنيا في اليوم الذي بدأت فيه الأوراق بالتساقط من الأشجار. في اليوم الذي بدأ فيه النهار يقصر، وربّما هذا هو السبب في مزاجي المائل إلى الكآبة. كسبتُ رزقي وعشتُ من خلال صفّ الكلمات في الصحف أو في وكالات الإعلانات، وكانت هذه الأخيرة تدفع أجوراً أعلى لقاء عددٍ أقلّ من الكلمات. وقد علّمتُ نفسي كيف أقوم بتنظيم الحفلات في باريس في وقتٍ لم تعُد هناك احتفالات في باريس. ولكن هذا الأمر لا صلة له بالكلمات، ومع ذلك، صنعتُ لنفسي بهذه الطريقة اسماً وشهرةً وذلك على الأرجح لأنّه في عصرنا كان الناس يعتبرون من يصفّون الكلمات أقلّ شأناً وأهمية ممّن تُنشر صورهم على الصفحات الليلية لبعض المجلّات.

لقد فاجأتُ الذين كانوا يهتمون بسيرتي الذاتية حينما تزوّجت عن حبّ. ذات يوم، وفي عينين زرقاوين لفتاة، اعتقدتُ أنني رأيتُ الخلود. أنا الذي كنتُ أقضي حياتي وأنا أركض من سهرة إلى أخرى وأنتقل من مهنة إلى أخرى لكي لا يكون لدي الوقت لليأس والقنوط، تخيّلتُ نفسي سعيداً.

(*) معسكر أوشفيتز: معسكر اعتقال وإبادة بُنيَ واستُخدِم من قِبَل ألمانيا النازية أثناء الحرب العالمية الثانية. -المترجم-

كانت زوجتي آن خارقة وذات جمالٍ باهر يكاد يكون مستحيلاً. كانت جميلة جداً لدرجة أنّ جمالها يَحُول بينها وبين السعادة ولكنني لم أعرف هذا الأمر إلّا بعد فوات الأوان. تأمّلتها لساعات طويلة. كانت تنتبه إلى ذلك أحياناً وتُعاتبني عليه، وتقول صارخة: «كفّ عن النظر إليّ، أنت تُضايقني». ولكن النظر إليها وهي تضجّ بالحيوية أصبح بالنسبة إليّ المشهد المفضّل. الصبيان الذين واجهوا مثلي القبائح في طفولتهم يُصابون بالكثير من الدهشة إذا ما نجحوا في إغراء فتاة جميلة سرعان ما يطلبونها للزواج.

أمّا ما تبقّى من تفاصيل الحكاية فليس فيها الكثير من الابتكار: ولكي لا ندخل في الكثير من التفاصيل، لنقل إننا سكنّا في شقّة صغيرة جدّاً لحبّ كبيرٍ جدّاً. ولذلك كنّا نخرج غالباً من بيتنا وانجررنا إلى دوّامة من الفساد. كان الناس يقولون عنّا:

- هذان الزوجان يخرجان كثيراً من بيتهما.
- نعم، المسكينان... كما لو أنّهما ليسا على ما يُرام!

ولم يكن الناس على خطأ تماماً، حتى وإن كانوا سعداء جدّاً بوجود فتاة جميلة، لمرّة واحدة، في سهراتهم التعيسة.

هكذا هي الحياة، ما إن تكون سعيداً بعض الشيء، حتى تتكفّل بإعادتك إلى الواقع.

نحن تناوبنا على عدم الوفاء.

لقد افترقنا تماماً كما تزوّجنا: دون أن نعرف السبب.

الزواج مؤامرة ضخمة، وخدعة جهنمية، وكذبة مدبّرة ومنظّمة، أُهلكنا فيها كطفلين. لماذا؟ كيف؟ الأمر في غاية البساطة. رجلٌ شاب يطلب يد امرأة يحبّها. يستبدّ به الخوف، يصبح لطيفاً، يحمرّ خجلاً، يتصبّب عرقاً ويتلعثم في الكلام، أمّا هي، فيلتمع البريق في عينيها وتضحك بعصبية وتلحُّ عليه بالسؤال. ما إن توافق على طلبه حتى تُسقِطهما قائمة طويلة من الالتزامات والواجبات، من دعوات عشاء وغداء للعائلة، وترتيبات الجلوس إلى المائدة، وطول الفستان وقصره، ونزاعات ومشادات، ومنع التجشؤ أو إطلاق الريح أمام والدَي الخطيب والخطيبة، والخضوع لأوامر من قبيل: اجلسا جيداً، ابتسما، ابتسما، وهذا كابوس لا نهاية له، وكلّ هذا ليس سوى البداية: سترون بعد ذلك أنّ كلّ شيء مدبّر لكي يَكرَها بعضهما.

9

مطرٌ فوق كوباكابانا

القصص الخرافية غير موجودة إلّا في الحكايات الخرافية. الحقيقة أكثر خيبة للآمال. الحقيقة دائماً تكون أكثر خيبة للأمل ولذلك يكذب الجميع.

الحقيقة هي أنّه تمّ العثور سهواً على صورة امرأة أخرى في حقيبة السفر خاصّتي في ريو دو جانيرو (البرازيل)، وذلك في ليلة رأس السنة. الحقيقة هي أنّ الحبّ يبدأ بداية ورديّة وينتهي نهاية فظيعة. كانت آن تفتّش عن فرشاة شعرها في الحقيبة ووقف شعر رأسها حينما عثرت على صورة لامرأة مشفوعة ببعض الرسائل الغرامية التي لم تكن منها هي.

في مطار ريو دو جانيرو، هجرتني آن وأرادت أن تعود إلى باريس من دوني. لم أكن في موقفٍ يتيح لي أن أمنعها من ذلك. كانت تبكي مذهولة ومصعوقة من هول المفاجأة

ومرعوبة كمَن خسر كلّ شيء في غضون عشرين ثانية. كانت فتاة صغيرة رائعة تكتشف فجأةً أنّ الحياة رهيبة وأنّ زواجها ينهار. لم تعُد ترى أيّ شيء أمامها. لم يعُد هناك مطار ولا رتل انتظار ولا لوحات إعلانات. لقد اختفى كلّ شيء ولم يبقَ أمام عينيها سواي أنا، جلادها. كم أنا نادمٌ اليوم على أنني لم أضمّها بين ذراعيّ! ولكنني كنتُ محرَجاً من أنّ دموعها لم تكفّ عن السيلان، وأنّ الجميع كانوا ينظرون إليّ. إنّه لأمرٌ محرج فعلاً أن يبدو المرء حقيراً ودنيئاً على الملأ وأمام أنظار الناس.

وبدلاً من أن أطلب منها الصفح، قلتُ لها: «اصعدي، سوف تتخلّفين عن الطائرة». لم أقُل أيّ شيء لكي أنقذها ممّا هي فيه. ما زال بدني يقشعرّ حزناً لمجرّد التفكير في ذلك اليوم. كان لها عينان زرقاوان متوسّلتان وحزينتان ومشوّشتان وحاقدتان ومنكسرتان وقلقتان ومحبَطتان وبريئتان وفخورتان ومحتقرتان ولكنّهما ظلّتا مع ذلك زرقاوين. سوف لن أنسى ذلك أبداً: كانت نظرتها تلك تكشف عن الألم. وسيكون عليّ أن أتعلّم العيش مع هذه الدناءة التي أحملها كحملٍ ثقيل على كاهلي. نشعر بالشفقة على الذين يتألّمون وليس على الذين يتسبّبون بهذا الألم. تدبّر أمرك كرجلٍ، يا عزيزي العجوز. فأنتَ ذاكَ الشخص الذي لم يفِ بوعوده. تذكّر نهاية رواية **أدولف** للروائي بنجامان كونستان: «المسألة الأهمّ في الحياة هي الألم الذي يتسبّب به المرء،

والميتافيزيقيا الأكثر براعة لم تبرّر سلوك الرجل الذي جرح القلب الذي أحبّه».

بعد ذلك، تسكّعتُ وحدي على شاطئ كوباكابانا في ريو دو جانيرو، محطّم القلب، وأفرطتُ في الشراب، وشعرتُ بالوحدة كما لم يشعر بها أحدٌ من قبل، وشعرتُ بأنني تافهٌ وظالم ومتوحّش. كنتُ سأصبح ما يشبه الحصى الباردة. للمرّة الأولى منذ عقودٍ من الزمن، كان المطر يهطل على ريفيون ريو. إنّه عقابٌ إلهي. جاثياً على ركبتي على الرمال، وسط الضجيج الصاخب لعازفي السامبا، بدأتُ أنا أيضاً أُمطر.

هناك ليالٍ يصبح فيها النوم ترفاً وبذخاً. ينام المرء كي يستيقظ من هذا الكابوس. يودّ المرء لو أنّ كلّ هذا لم يحدث أبداً. يودّ لو أنّه يستطيع أن يحذف محطاتٍ من حياته لأنّه يرمي بنفسه في الهاوية حينما يقوم بإيلامِ أحدٍ.

نعم، هذا صحيح، أتذكّر جيّداً تلك الليلة التي هجر النوم عينيّ خلالها. كان هناك مليون برازيليّ يرتدون الأبيض تحت المطر على الشاطئ. وكانت هناك حفلة ألعاب نارية ضخمة أمام فندق الميريديان. كان ينبغي إلقاء زهورٍ بيضاء إلى أمواج البحر مع تمنّي أمنية تتكفّل الآلهة بتحقيقها خلال السنة

الجديدة. ألقيتُ بباقة من الزهور إلى الأمواج متمنيّاً من كلّ قلبي أن تسوّى كلّ أموري. لا أدري ما الذي حدث: ربّما كانت أزهاري سيئة وقبيحة، أو أنّ الآلهة كانت غائبة.

في كلّ الأحوال، لم تتحقّق أمنياتي أبداً.

10

قصر العدل في باريس

الطلاق ليس سهلاً وبسيطاً أبداً. أيّ نوعٍ من القاذورات أصبحنا حتى اعتقدنا أنّ الأمر يتعلّق بعملٍ غير خطير؟ لقد وثقت بي آن وأودَعَتني حياتها أمام الله (وعلى نحوٍ أدقّ: أمام الجمهورية الفرنسية). لقد وقّعت على ميثاقٍ أتعهّد بموجبه بأن أعتني بها دائماً وأن أقوم بتربية أطفالنا. لقد خدعتُها وغدرتُ بها. آن هي مَن طلبَت الطلاق: على العكس من سير الأمور تماماً، إذ كنتُ أنا مَن طلبتُ يدها للزواج. لم نُنجب أطفالاً وهذا خيرٌ لهم. أنا رجلٌ خائن وجبان، الأمر الذي كان سيكلّف أولادنا الكثير فيما لو أنجبناهم. أنا الآن أقرّ بذنبي لكي أكفّ عن ارتكاب الذنوب.

لماذا لا يحضر أحدٌ إجراءات الطلاق؟ في حفلة زواجي، كان جميع أصدقائي يحيطون بي. لكن في يوم طلاقي، كنتُ وحيداً على نحوٍ لا يُطاق. لم يكن هناك شهود،

ولا وصيفات، ولا عائلة، ولا أصدقاء سُكارى لكي يربّتوا على ظهري ويشجّعوني. لم تكُن هناك زهور، ولا أكاليل. أردتُ أن يُلقى عليّ شيءٌ ما، ربّما أرزّ فاسد، أو ربّما طماطم متعفنة، على سبيل المثال. عند الخروج من قصر العدل في باريس، كان رمي هذا النوع من المقذوفات أمراً شائعاً. أين كلّ أولئك الأقارب الذين كانوا يلتهمون في حفلة زواجي القطع الصغيرة من المعجنات والآن يقاطعونني، في حين يجب أن يكون الأمر معاكساً - ينبغي على الدوام أن يتزوّج المرء وحيداً ويُطلّق وسط دعمٍ من كلّ أصدقائه؟

يبدو أنّ بعض القساوسة الأنغليكانيين ينظّمون طقوساً دينية خاصّة بالطلاق بطريقة ودّية، مع مباركة من الزوجين المنفصلين وتنازلٍ احتفالي عن خواتم الزواج بطريقة رسمية. «أَبَتِ، أقدّم لك هذا الخاتم كعلامة على أنّ زواجي قد انتهى». أنا أرى أنّ هذا الأمر ليس سيئاً. وربّما على البابا أن يدرس هذه المسألة: فربّما سيقود هذا الأمر بالناس إلى الكنائس، ثمّ إنّ إعادة بيع خواتم الزواج سوف تدرّ مواردَ أكثر من جَمع الصدقات من المؤمنين، أليس كذلك؟ قلتُ في نفسي إنّ هذه الفكرة تستحقّ التفكير العميق، في حين حاول القاضي المكلّف بإنجاز إجراءات طلاقي أن يُصالح بيننا. سألنا، آن وأنا، إن كنّا فعلاً نرغب في الانفصال والطلاق. تحدّث إلينا كما لو كنّا طفلين في الرابعة من عمرنا. رغبتُ أن

أقول له بأن كلّا وبأننا جئنا إلى هنا لنمارس لعبة التنس. ومن ثمّ فكّرت وأدركتُ أنّه كان محقّاً في تعامله معنا: لقد كان محقّاً فعلاً، فقد كنّا طفلين في الرابعة من عمرنا.

الطلاق هو فضُّ بكارة ذهني. بغياب «الحرب الجيّدة» التي ربّما كنّا نستحقّها، فإنّ هذا النوع من الكوارث (من قبيل أن يفقد المرء والدته أو والده، أن يجد نفسه مشلولاً بعد حادثٍ مروري، أن يفقد مسكنه من جرّاء طردٍ تعسّفي) هي الحوادث الوحيدة التي تعلّمنا أن نصبح رجالاً.

. . . وماذا لو أنّ الخيانة الزوجية قد جعلتني ناضجاً؟

يتظاهر المرء بأنّه لامبالٍ بمسألة الطلاق، ولكن سرعان ما تأتي اللحظة الفظيعة التي يُدرك فيها أنّه قد انتقل من «الحسناء النائمة» إلى «لن نشيخ معاً»، وأنّه قد ودّع ذكرياته الحميمة وعليه أن يتخلّى عن الألقاب الرائعة التي كان يمنحها لنفسه وأن يحرق صور شهر العسل، وأن يُطفئ المذياع حينما يسمع أغنية كانا يُدَنْدِنانها معاً. تُخرجك بعض الجمل عن طورك: «ماذا سأرتدي؟»، «ماذا سنفعل هذا المساء؟»، لأنّها تذكّرك بالذكريات السيئة. وسوف تنهمر دموعك على نحوٍ غير مفهومٍ كلّما شاهدت لقاءات لمّ الشمل في مطارٍ. وحتى نشيد الأناشيد سيصبح تعذيباً: «أيامك جميلة مثل يمامة، ورقبتك

أشبه بأطواقٍ نفيسة. . . لقد جرحتِ قلبي، وأختي، وزوجتي، لقد جرحت قلبي بإحدى عينيكِ وبشعرة من رقبتك».

المرّات الوحيدة التي سنلتقي فيها من الآن فصاعداً، ستكون بحضور محامية مبتسمة تتعامل مع المسألة على أنّها صفقة وذات مزاج سيئ لكونها حامل في الشهر الأخير. وسوف نقبّل بعضنا بعضاً مثل صديقين قديمين. وسوف نذهب لنشرب معاً فنجاناً من القهوة كما لو أنّ الكرة الأرضية لم تكُن قد انهارت للتوّ. يستمرّ من حولنا الناس في حياتهم. سوف نثرثر بنبرة مرحة، ومن ثمّ حينما سننفصل، بشكلٍ عاديّ وكأنّ شيئاً لم يكن، سوف يصبح الفراق أبدياً. وسوف تكون عبارة «إلى اللقاء» الكذبة الأخيرة.

11

الرجل الثلاثيني

في الوسط المحيط بي، لا يطرح المرء على نفسه أيّ سؤال قبل بلوغه سنّ الثلاثين، وحينذاك، يكون قد فات الأوان بالتأكيد على الإجابة عنه.

ها هي الطريقة التي تجري بها الأمور: حينما تكون في العشرين من العمر، تمزح وتعبث قليلاً وعلى استحياء، وعندما تستيقظ تكون قد أصبحت في الثلاثين من عمرك. هنا ينتهي كلّ شيء: إذ لا يمكن أن تكون في العشرين من عمرِك إلّا لمرّة واحدة في حياتك. عليك أن تتقبّل مسألة أن تكون لكَ عشرة أعوام أكثر ممّا كان لك قبل عشرة أعوام وأن يزداد وزنك عشرة كيلوغرامات عمّا كان عليه في السنة الماضية. كم من السنوات تتبقّى لك؟ عشر سنوات؟ عشرون سنة؟ ثلاثون سنة؟ ويبلغ بك متوسّط العمر 42 عاماً إن كنتَ رجلاً و50 عاماً إن كنتِ امرأة. ولكن هذا لا يشمل الأمراض، والشعر

الذي يتساقط، والخَرَف والبقع الظاهرة على اليدين. لا أحد يطرح على نفسه هذه الأسئلة: هل استفدنا من ذلك بما فيه الكفاية؟ هل كان علينا أن نعيش حياتنا بطريقة مختلفة؟ هل كنّا مع الشخص المناسب في المكان المناسب؟ ماذا يقدّم لنا هذا العالم؟ منذ الولادة وحتى الموت، نوصل حيواتنا بالقيادة الآلية، ونحتاج إلى شجاعة تفوق قدرة البشر لكي نغيّر مجرياتها.

حينما كنتُ في العشرين من عمري، اعتقدتُ أنني أعرف كلّ شيء عن الحياة. وحينما بلغتُ الثلاثين، علمتُ أنني لا أعرف شيئاً. لقد أمضيتُ عشر سنوات في تعلّم كلّ ما سيكون عليّ، فيما بعد، أن أنسى تعلّمه.

كان كلّ شيء في غاية الكمال. يجب أن نرتاب في أمر الزوجين المثاليين: إنّهما يحبّان كثيراً أن يكونا جميلين؛ يُرغمان نفسيهما على أن يبتسما كما لو أنّهما يقدّمان دعاية فيلم جديد في مهرجان كان. ما هو مزعجٌ في الزواج بعد قصّة حبّ هو أنّه يبدأ بسقفٍ عالٍ جدّاً. الشيء الوحيد الذي يمكنه أن يحدث على نحوٍ مدهش للزواج عن حبّ هو كارثة طبيعية. وإلّا ماذا غير ذلك؟ تنتهي الحياة. لقد كنّا في الفردوس أصلاً قبل أن نعيش. وسيكون علينا أن نبقى حتى الموت في الفيلم الناجز نفسه مع فريق العمل الممتاز نفسه. هذا أمرٌ من

الصعب التعايش معه. حينما ننال كلّ شيء باكراً، ينتهي بنا المطاف بأن نتمنّى أن تحصل كارثة على طريق الخلاص. أن تحدث كارثة لكي نرتاح.

لقد استغرقتُ وقتاً طويلاً لكي أعترف بأنني كنتُ قد تزوّجتُ من أجل الآخرين، وأنّ الزواج ليس أمراً يُقدِمُ عليه المرء لذاته. يتزوّج المرء لكي يُغيظ أصدقاءه أو لكي يُسعد والديه، وغالباً لتحقيق هذين الغرضين معاً، وأحياناً يكون الأمر على العكس من ذلك تماماً. في أيامنا هذه، تسعة أعشار حفلات الزواج الباذخة لا تشكّل سوى ممرّات إلزامية ينبغي سلوكها. إنّها عبارة عن احتفالات اجتماعية راقية يدعو إليها الوالدان تحت ضغوط الواجبات المجتمعية. في بعض الأحيان، وفي بعض الحالات الحرجة جدّاً، تتحقّق أسرة العروس من أنّ صورة صهرها المستقبلي قد ظهرت في الدليل الاجتماعي الخاصّ بذوي المكانة الرفيعة في المجتمع، وتزن خاتم خطوبته لتتأكّد من عدد القراريط، وتُصرّ على أن يُنشر تقريرٌ عن حفلة الخطوبة في صفحة آراء وصور في مجلة **وجهة نظر-صور من العالم**. ولكن هذه فعلاً عبارة عن حالات متطرّفة.

يتزوّج المرء تماماً مثلما يتقدّم إلى امتحان الثانوية أو إلى فحص نيل إجازة قيادة السيارة: إنّه على الدوام القالب نفسه

الذي يريد المرء أن يكون فيه لكي يكون طبيعياً، **طبيعياً**، مهما كلّف الثمن. إذا لم يجد المرء سبيلاً ليكون فوق الجميع، فإنّه يريد أن يكون مثل الجميع، وذلك خشية من أن يكون أسفل الجميع. وهذه هي الطريقة المثلى لتدمير حبّ حقيقي.

كما أنّ الزواج ليس مجرّد نمطٍ مفروضٍ من قبل التربية البرجوازية، وإنّما أيضاً الغرض منه عملية غسل دماغ هائلة إعلانية وسينمائية وصحافية، بل وحتى أدبية. إنّه عبارة عن خدعة كبيرة تنتهي بدفع فتيات جميلات إلى الرغبة في وضع خاتم الخطوبة في الإصبع وارتداء الفستان الأبيض، في حين أنّهن من دون الزواج لما فكّرن أبداً في هذه الأمور. وإلّا لماذا يعشن؟ ولكنّ الزواج، **المؤسسة-التي-تجعل-الحبّ-مملّاً**، «مهنة الحبّ إلى الأبد والاقتران مدى الحياة» (موباسان): أبداً. في عالم مثالي، لن تنجذب الفتيات البالغات عشرين عاماً أبداً إلى ابتكارٍ على هذا القدر من التصنّع، وإنّما سيحلمنَ بالإخلاص والوفاء والعاطفة وما هو مُطلَق - وليس برجلٍ يرتدي سترة مستأجَرَة. سوف ينتظرن **الرجل** الذي يعرف كيف يُفاجئهنّ مع بزوغ كلّ يومٍ جديد، وليس **الرجل** الذي سوف يقدّم لهنّ رفوف متاجر إيكيا للمفروشات. سوف يَدَعن **الطبيعة** -أي الرغبة- تقوم بدورها. لسوء الحظّ، تتمنّى لهنّ أمّهنّ المُحبَطة مصيبة مماثِلَة، وقد عشنَ بأنفسهنّ الكثير من المسلسلات الدرامية الطويلة.

فينتظرن **الأمير الساحر**، هذا المفهوم الإعلاني الغبي الذي يصنع الكثير من النساء المحبَطات والعوانس والساخطات، في حين وحده رجلٌ غير كاملٍ يمكنه أن يجعلهنّ سعيدات.

طبعاً، سوف يُقسم لك البرجوازيون أنّ هذه الأنماط لم تعُد رائجة، وأنّ الأخلاق قد تغيّرت، ولكن صدّقوا ضحية غاضبة ومستاءة: لم يكن القمع أبداً أكثر عنفاً ممّا هو عليه في عصر الحرية الزائفة هذا. تستمر الشمولية الزوجية كلّ يوم في إدامة الشقاء جيلاً بعد جيل. يفرضون علينا هذا المزمور تبعاً للمبادئ الفاشية والبالية بهدفٍ خفيّ ألا وهو إعادة إنتاجٍ متواصلة لإرثٍ من الألم والنفاق. إنّ تحطيم الحيوات يبقى الرياضة المفضّلة لدى العائلات الفرنسية القديمة وهي على دراية ومعرفة بهذا الخصوص. لقد تلقّت تدريباً على ذلك. نعم يمكننا اليوم أيضاً أن نكتب ذلك: أيّتها العائلات، أنا أكرهكم.

أنا أكرهكم بقدر ما تمرّدتُ عليكم بعد أن فات الأوان كثيراً. في أعماقي، كنتُ سعيداً جدّاً. كنتُ رجلاً ريفياً ساذجاً من عامّة الشعب، سليل الريفيين الجنوبيين، فخوراً مثل طاووسٍ بالزواج من آن الأرستقراطية الرقيقة. كنتُ متهوّراً ومتبجّحاً وساذجاً وغبيّاً. وقد دفعتُ ثمن ذلك غالياً، وأنا أستحقّ هذه الهزيمة الكارثية. كنتُ مثل جميع الناس،

مثلكم أنتم الذين تقرأون روايتي الآن، مقتنعاً بأنني الاستثناء الذي يؤكّد القاعدة، وأنّ سوء الحظ سيتجنّبني بالتأكيد، وأنّنا سوف ننجو، وأنّ الفشل لا يُصيب سوى الآخرين. رحل الحبّ ذات يوم واستفقتُ مصعوقاً. حتى ذلك اليوم، كنتُ أُرغم نفسي على القيام بدور الزوج السعيد. ولكنني كنتُ أكذب على نفسي منذ زمنٍ طويلٍ جدّاً لكي لا أبدأ، ذات يوم، بالكذب على شخصٍ آخر.

12

أوهام مفقودة(*)

يتعامل جيلنا بسطحية بالغة في مسألة الزواج. نُقبِل على الزواج كما لو أننا ذاهبون إلى أحد مطاعم الماكدونالد. وبعد ذلك نقوم بالتبديل. كيف تريدون للمرء أن يقضي كلّ ما تبقّى من حياته مع الشخص نفسه في مجتمع التبادل المعمّم؟ في عصرٍ لم يكن فيه النجوم ورجال السياسة والفنون والأجناس والأديان قط على هذه الدرجة من القابلية للتغيير والتبدّل؟ لمَ ينبغي أن تبقى مشاعر الحبّ استثناءً من هذه الشيزوفرينيا العامّة؟

ثمّ وقبل كلّ شيء، من أين يأتينا هذا الهوس الفضولي: أن يسعى المرء جاهداً مهما بلغ الثمن لكي يكون سعيداً مع

(*) أوهام مفقودة: هو كتاب للكاتب الفرنسي أونوريه دو بلزاك، كتبه بين عامي 1837 و1843. -المترجم-

شخصٍ واحدٍ مدى الحياة؟ من أصل 558 نمطاً من المجتمعات البشرية، 24% فقط من رجالها يكتفون بزوجة واحدة أو تكتفي نساؤها بزوجٍ واحد. غالبية الأنواع الحيوانية متعدّدة الزوجات. أمّا المخلوقات غير الأرضية، فحدّث ولا حرج: فميثاق المجرّة X23 منع منذ زمنٍ طويل مبدأ أحادية الزوجات في كلّ الكواكب من طراز B#871.

الزواج هو كافيارٌ يُؤخَذ في كلّ الوجبات: إنّه عسر هضمٍ ممّن تعشق، إلى حدّ الغثيان. «هيّا، سوف تتناول منه المزيد، أليس كذلك؟ ماذا؟ لم تعُد قادراً على ذلك؟ ولكنّك كنت ترى ذلك لذيذاً قبل قليل، ما الذي حدث لك؟ هيّا أيّها المشاكس!».

لا بدّ أنّ قوّة الحبّ، قدرته غير العادية، قد أرعَبَت صراحةً المجتمع الغربي حتى جاء يخلق هذا النظام الذي يجعلك تَعاف ما تحبّ.

لقد أثبت باحثٌ أميركي مؤخّراً أنّ الخيانة الزوجية مسألة بيولوجية. يعتبر هذا العالِم الشهير أنّ الخيانة الزوجية هي **استراتيجية جينية لتعزيز بقاء النوع**. تخيّلوا المشهد بين الزوجين في المنزل: «حبيبتي، أنا لم أخنكِ من أجل المتعة، وإنّما من أجل الحفاظ على النوع البشري، فقط تخيّلي! ربّما

أنتِ لا تبالين بهذا الأمر، ولكن لا بدّ أن يهتمّ أحدٌ ما به، أقصد بالحفاظ على النوع! لا تظنّي أنّ هذا الأمر يسلّيني!...».

لم أصل قطّ إلى درجة الإشباع: حينما تُعجبني فتاة، أريد أن أقع في حبّها؛ حينما أقع في حبّها، أريد أن أعانقها وأقبّلها؛ وحينما أعانقها، أريد أن أنام معها؛ وحينما أنام معها، أريد أن أعيش معها في منزلٍ؛ وحينما أعيش معها في منزلٍ، أريد أن أتزوّجها؛ وحينما أتزوّجها، أصادف فتاة أخرى تُعجبني. الرجل حيوانٌ لا يشبع يتردّد بين العديد من الإحباطات. إذا أرادت النساء أن يلعبنَ اللعبة بمهارة، عليهنّ أن يتمنّعن لكي يسعى الرجال إلى كسب وِدّهنّ طوال حياتهم.

السؤال الوحيد في الحبّ هو: متى يبدأ المرء بالكذب؟ هل ما زلت بالسعادة نفسها في العودة إلى بيتك لتلتقي المرأة نفسها التي تنتظرك؟ حينما تقول لها: «أحبّك»، هل ما زلتَ تعتقد ذلك؟ سوف تأتي لحظة ما تُرغم نفسك على فعل ذلك، وهذه مسألة قدرية محتومة. لحظة لن تعود فيها لكلمة «أحبّك» النكهة نفسها. بالنسبة إليّ، كانت اللحظة الفارقة هي حلاقة الذقن. كنتُ أحلق ذقني كلّ مساء لكي لا أزعج آن حينما أقبّلها في الليل. ومن ثمّ، ذات مساء - كانت آن قد نامت (حيث كنتُ قد خرجتُ من دونها وبقيتُ خارج البيت حتى

مطلع الصباح، وبصورة نمطية هذا تصرّفٌ وقح يسمح المرء لنفسه بأن يُقدِمَ عليه بذريعة الزواج) - لم أحلق ذقني. اعتقدتُ أنّ ذلك ليس أمراً ذا أهمية طالما أنّها لن تنتبه إليه. في حين أنّ ذلك كان يدلّ بكلّ بساطة على أنني لم أعُد أحبّها.

حينما نُطلِّق، نشتري دائماً رواية **الانفصال** للروائي دان فرانك. المشهد الأوّل من الرواية مؤثّر: في إحدى المسرحيات، يُدرك الرجل أنّ زوجته لم تعُد تحبّه لأنّها سحبت يدها من يده. حاول أن يُمسك بيدها مرّة أخرى ولكنّها سحبتها من جديد. قلتُ في نفسي: يا لها من امرأة وقحة! لمَ كلّ هذه القسوة؟ ليس بالأمر الصعب والمعقّد أن تدَع يدها في يد زوجها، اللعنة! حتى جاء اليوم الذي حدث معي الموقف نفسه. فقد بدأتُ أدفع يد آن في كلّ مرّة تلامس يدي. كانت تُمسك بلطفٍ وحنان يدي أو ذراعي أو كانت تضع يدها على فخذي حينما كنّا نشاهد التلفاز، وأنا ماذا كنتُ أرى؟ يداً رطبة، مائلة للبياض، مع لزوجة شبيهة بقفازات من ماركة **مابا**. كنتُ أرتعش من الاشمئزاز. كنتُ أشعر كما لو أنها تُلقي عليّ بأخطبوط. كنتُ أشعر بالذنب وأقول في نفسي: يا إلهي، كيف فعلتُ هذا بنفسي؟ لقد أصبحتُ الوقح الذي في كتاب دان فرانك. ألحّت آن على أن تشبك أصابعها بأصابعي فأرغمتُ نفسي على تقبّل ذلك من

دون أن أنجح في منع تكشيرتي. قفزتُ من مكاني، زاعماً أنني سأذهب لكي أتبوّل، ولكن في الحقيقة لكي أهرب فقط من تلك اليد. ثمّ عدتُ على قدميّ وأنا أشعر بالندم، فنظرتُ إلى تلك اليد التي كنتُ قد أحببتها. يدها التي كنتُ قد طلبتها أمام الله. يدها التي كنتُ مستعداً، قبل ثلاث سنوات خَلَت، أن أدفع حياتي ثمناً لكي أمسكَ بها بهذه الطريقة. ولم أشعر سوى بالحقد على نفسي، والخجل منها وباللامبالاة، والرغبة في البكاء. وكنتُ سأضمّ إلى قلبي ذلك الأخطبوط الرطب، ثمّ أقبّل يديها الرطبتين تعبيراً عن الحزن والإحباط.

ينتهي الحبّ حينما لا يعود من الممكن إعادته إلى الوراء. وهكذا نفهمه ونُدركه: لقد جرَت مياه تحت الجسور، وسادَ سوء الفهم؛ لقد انفصلنا حتى من دون أن نشعر بذلك.

13

المُزاح مع الكوارث(*)

في سياق رحلتي في تلك الليلة، جاء صديقٌ وتحدّث إليّ (لم أعُد أتذكّر مَن هو ولا متى ولا حتى أين).

سألني:

- لماذا أنتَ عابس؟

أتذكّر تماماً أنني أجبته فقط بالقول:

- لأنّ الحبّ يدوم ثلاث سنوات.

بدا أنّ قولي هذا قد فعلَ فعله: توارى ذاك الشخص عن الأنظار. ولذلك، أعيد استخدام هذا التعليق الذي أجبتُ به عن سؤاله أينما حلَلت. ما إن تظهر على وجهي علامات الحزن ويُطرَح عليّ السؤال عن أسبابه، أُبادر إلى الردّ على نحوٍ قاطع:

(*) Flirting with Disaster: فيلم أميركي من الكوميديا السوداء صدر عام 1996 من إخراج ديفيد أو. راسيل. -المترجم-

- لأنّ الحبّ يدوم ثلاث سنوات.

أجد في هذا الردّ مهارة باهرة. حتى أنني، على المَدى البعيد، قلتُ في نفسي إنّ هذه العبارة قد تكون عنواناً مناسباً لكتاب.

الحبّ يدوم ثلاث سنوات. حتى وإن كنتَ متزوّجاً منذ أربعين سنة، اعتَرِفْ في قرارة نفسك بأنّك تعلم تماماً بأنّ ذلك صحيح. فأنت ترى جيّداً ما الذي تخلّيت عنه؛ وفي أيّ لحظة تنازلت. اليوم المشؤوم الذي لم تعُد تشعر فيه بالخوف.

أن يسمع المرء أنّ الحبّ يدوم ثلاث سنوات ليس أمراً لطيفاً؛ إنّه أشبه بخدعة سحرية فاشلة، أو برنين ساعة المنبّه في منتصف حلمٍ ممتع. لكن يجب تحطيم كذبة الحبّ الأبدي، أساس مجتمعنا المتفنّن في صناعة تعاسة الناس.

بعد ثلاث سنوات، يجب على الزوجين أن يفترقا، أو ينتحرا، أو يُنجبا أطفالاً، وهذه ثلاث طُرق للتصديق على نهاية الحياة الزوجية.

غالباً ما يُقال لنا إنّ العاطفة تتحوّل بعد مرور بعض الوقت إلى «شيءٍ آخر»، أكثر متانة وأكثر جمالاً. وإنّ هذا «الشيء الآخر» هو الحبّ بمعناه الأعظم، وهو شعورٌ أقلّ

إثارةً ولكنّه أيضاً أقلّ فجاجةً. أودّ هنا أن أكون واضحاً تماماً: هذا «الشيء الآخر» يُضايقني، وإذا كان هذا هو الحبّ العظيم، فأنا أترك الحبّ العظيم للكسالى والمحبَطين وللناس «الناضجين» الذين يحصرون أنفسهم في راحتهم العاطفية. أمّا أنا، فحبّي يحمل معنى «بسيطاً» ولكنّه يحلّق كثيراً: لا يدوم طويلاً ولكنّه حينما يحضر يشعر المرء بمروره. أمّا «شيؤهم الآخر» الذي يريدون أنّ يحوّلوا الحبّ إليه فيشبه نظرية تمّ ابتكارها لكي يستطيعوا أن يكتفوا بالقليل، وأن يُطَمئنوا أنفسهم وهم يصرخون بأنّه ليس هناك ما هو أفضل. إنّهم يذكّرونني بالحُسّاد الذين يخدشون أبواب السيارات الفارهة لأنّهم لا يملكون الأموال لشراء سيارة مثلها.

نهاية سهرة كارثية. ثمّة رغبة في التخلّص من الاضطرابات الصاخبة في البطن. نحو الساعة الخامسة صباحاً، اتّصلتُ هاتفياً بآدلين هـ.، وهذا يدلّ على أنني لم أكُن على ما يُرام: لديّ رقمها الشخصي. هي مَن رفعت السماعة وردّت بصوتٍ أجشّ: «مرحباً؟ مرحباً؟ مَنْ المتّصل؟» لقد أيقظتها من النوم. تُرى لماذا لم تُشغّل المجيب الآلي؟ لم أعرف ماذا أقول لها. قلت: «آه... اعذريني لأنني أيقظتكِ... أردتُ فقط أن أقول لكِ: مساء الخير...». أجابت: «**مَن أنت؟ هل جُننت أم ماذا، أيّها اللعين؟**» أغلقتُ سمّاعة الهاتف. جلستُ في مكاني ساكناً بلا حراك وأسندتُ

رأسي إلى يديّ. فكّرتُ في الانتحار متردّداً بين استخدام علبة عقار ليكسوميل والشنق: ولماذا لا أنتحر باستخدام الوسيلتين معاً؟ لم يكن لديّ حبل، ولكنني كنتُ أمتلك ربطات عنقٍ عديدة من ماركة بول سميث مربوطة بعضها ببعض وكانت ستفي بالغرض. يختار الخيّاطون الإنجليز على الدوام مواد متينة جداً. ألصقتُ ملصقاً على التلفاز: «**كلّ رجل يبقى على قيد الحياة بعد سنّ الثلاثين هو رجلٌ مغفّل**». لقد أحسنتُ صنعاً باستئجار شقّة فيها عوارض وأعمدة ظاهرة. يكفي أن يصعد المرء على هذا الكرسي الموجود هنا وأن يشرب كأس الكوكا كولا الذي يحتوي على الحبوب المسحوقة. بعد ذلك، يمرّر رأسه من داخل الأنشوطة، وفي اللحظة التي ينام فيها، منطقياً، يكون الغرض هو ألّا يستيقظ بعد ذلك أبداً.

14

قيامة مؤقّتة

أجل: نستيقظ من النوم. نفتح عيناً، ثمّ الأخرى، نشعر بألمٍ مضاعفٍ في الجمجمة بسبب صداع الكحول ولكن أيضاً بسبب حدبة ضخمة في طور النمو المتسارع في أعلى الجبين. الوقت هو فترة ما بعد الظهيرة ويشعر المرء بنفسه مضحكاً جدّاً وقد تعقّدت ربطة العنق حول رقبته، وهو ممدّدٌ عند قدم كرسيّ منقلبٍ وتقف عند رأسه امرأة خادمة.

- صباح الخير كارميليتا... أنا... هل نمتُ لوقتٍ طويل؟

سألت الخادمة بلغة فرنسية ركيكة تخلط فيها المذكّر بالمؤنّث وتحذف أحرفاً وتُضيف أخرى بلفظٍ غير سليم:

- هل يمكنك يا سيّدي أن تتنحّى جانباً قليلاً من فضلك لتمرير الشفاطة يا سيّدي؟

ومن ثم يجد المرء على تلفازه عبارة: «**كلّ رجل يبقى**

على قيد الحياة بعد سنّ الثلاثين هو رجلٌ مغفّل». فيُصاب بالدهشة من هذه الهبّة التي تُضمِر تحذيراً. يا للحبيب المسكين. سوف يُثير إعجاب كلّ الفتيات الجميلات ويجلب الاكتئاب والإحباط بمجرّد وقوع الطلاق. كان ينبغي التفكير في هذا الأمر على نحوٍ أبكر. لم يعُد لديّ الآن سوى آلامي. يا له من ضياعٍ للوقت حينما يريد المرء أن ينتحر وهو بالأساس ميّت.

المنتحرون فعلاً أناسٌ غير صالحين للعيش. لقد أعادت لي زوجتي حريّتي وها أنا ذا غاضبٌ منها. أنا غاضبٌ منها لأنّها تركتني وحدي في مواجهة نفسي. أنا غاضبٌ منها لأنها سمحَت لي أن أبدأ من نقطة الصفر. أنا غاضبٌ منها لأنها أرغمَتْني على أن أتحمّل مسؤولياتي. أنا غاضبٌ منها لأنّها دفعتني إلى كتابة هذا المقطع: «لقد تألمتُ لكوني حبيساً والآن أتألّم لكوني حرّاً، هل هذه هي إذاً حياة الإنسان البالغ: أن نبني قصوراً من الرمل ومن ثمّ نقفز عالياً وأرجلنا مضمومة، ونُعيد العملية من جديد، لمرّاتٍ ومرّات، في حين أننا نعلم جيّداً أنّ مياه المحيط سيُزيلها على أيّ حال؟».

لديّ أجفانٌ ثقيلة مثل الليل الذي يهبط. هذه السنة، شختُ كثيراً. ما هي العلامات التي تدلّ على أنّ المرء قد أصبح عجوزاً؟ حينما يحتاج إلى ثلاثة أيام لكي يستفيق من

هذه السكرة. حينما يخفق في كلّ محاولاته للانتحار. عندما يكون مفسِداً للبهجة حالما يلتقي مع أناسٍ أصغر منه سنّاً. تُغيظه حماستهم وتُتعِبه أوهامهم. يصبح المرء عجوزاً حينما يقول مساءً لفتاة ولِدَت في عام 1976: «عام 76؟ أتذكّر تلك السنة، كانت سنة جفافٍ».

وإذ لم تعُد لديّ أصابعٌ لأعضّها ندماً، قرّرت أن أخرج من البيت لتناول العشاء.

مكتبة
t.me/t_pdf

15

حائط المبكى (تابع)

لقد عرفتُ أنّ الحبّ مستحيل، وأنا واثقٌ من أنني بعد بضع سنوات سوف أكون فخوراً بأنني قد آمنتُ بذلك. لن يستطيع أحدٌ أن ينزع هذه الفكرة من رأسنا، آن وأنا: لقد آمنّا بذلك بكلّ إخلاص. لقد صدمنا رأسنا المطأطأ بدريئة من الإسمنت المسلّح. لا تضحكوا من ذلك. لا أحد يسخر من دون كيخوت الذي يهاجم في كلّ مكان طواحين الهواء.

لزمنٍ طويل، كان هدفي الوحيد في الحياة أن أدمّر نفسي ذاتياً. ثمّ، فجأةً ولمرّة واحدة، رغبتُ أن أحظى بالسعادة. هذا أمرٌ فظيع، أشعر بالخجل، اعذروني: ذات يوم، استبدّت بي هذه الرغبة الغريبة في أن أكون سعيداً. وما تعلّمته منذ ذلك الحين هو أنّ تلك الرغبة كانت الطريقة المثلى لتدمير ذاتي. كنتُ في أعماقي، ومن دون أن أقصد ذلك، صبيّاً متماسكاً ومنسجماً مع ذاتي.

لا أعرف لماذا قبلت أن أتناول ذاك العشاء في بيت جان-جورج. لم أكُن أشعر آنذاك بالجوع. لقد دأبتُ دائماً على أن أنتظر إلى حين أن أشعر بالجوع ومن ثمّ أتناول الطعام. هذه هي الأناقة: أن نأكل حينما نجوع، وأن نشرب حينما نعطش، وأن نجامع حينما نبلغ حالة الانتصاب. ولكن حسناً، لن أنتظر إلى أن أموت جوعاً لكي أقابل أصدقائي. ولا شكّ أنّ جان-جورج سيكون قد دعا عصابة المرضى العظماء من أصدقائي المقرّبين نفسها. لن يتحدّث أحدٌ منهم عن مشاكله لأنّ كلّاً منهم سوف يعلم بأنّ لدى الآخرين الكثير من المشاكل أيضاً. سوف نقوم بتغيير الموضوع لكي نخادع اليأس.

ولكنني كنتُ مخطئاً في اعتقادي. كان جان-جورج وحيداً في منزله. أراد أن يُصغي إليّ. أمسَكَني من رقبتي وهزّني مثل جهاز العداد الذي لم يطبع البطاقة ويُخرجها بعد أن ابتلع القطعة النقدية من فئة العشرة جنيهات.

- البارحة مساءً، سألتك لماذا أنت عابس وأجبتني بأنّ الحبّ يدوم ثلاث سنوات. هل تهزأ مني أم ماذا؟ هل تعتقد أنّك إحدى الشخصيات في أحد كتبك؟ أرى أنّ طلاقك لا علاقة له أبداً بما في تلك الكتب! إذاً، كُفّ الآن عن الترّهات، وسوف تحدّثني، نعم أم لا؟ وإلّا ما فائدتي أنا لك؟

أخفضتُ عينيّ لكي أخفي بَلَلهما. تظاهرتُ بأنني مصابٌ بالرشح لكي أستطيع أن أتنشّق. غمغمت:

- آه... كلا، حقّاً، لا أرى ما تريد أن تقوله...

- توقّف. مَن هي؟ هل أعرفها؟

حينذاك، بصوتٍ خفيض وقلبٍ كبير وقدَمين مرتعشتين، بدأتُ بالاعترافات:

- اسمها أليس.

16

هل تقبلين أن تكوني خليلتي؟

إذاً ها هي الحكاية: لقد تزوّج مارك وأليس قبل ثلاث سنوات. المزعج في الأمر هو أنّهما لم يتزوّجا معاً.

تزوّج مارك آن وتزوّجت أليس من أنطوان. هكذا هي طبيعة الأشياء: تسير الحياة دائماً لكي تعقّد الأمور - أم أننا نحن مَن نبحث عن التعقيد؟

كانت الصورة التي اكتشفتها آن في مطار ريو هي صورة أليس. صورة رقمية عالية الدقّة، جميلة وفاتنة لأليس وهي ترتدي البكيني على أحد شواطئ إيطاليا، قرب روما. في منطقة فريجين على نحوٍ أدقّ.

كانت تربطنا أليس وأنا «علاقة غير شرعية». هكذا تُسمّى أجمل العواطف الرومانسية، في عصرنا هذا. يموت أناس

حبّاً كلّ يوم بسبب «علاقات غير شرعية». وغالباً ما تُصادفون نساءً في الشارع. لا يبدو عليهن ملامح أيّ شيء لأنهنّ يخفين في داخلهنّ هذا السرّ، ولكنّكم ترونهنّ في بعض الأحيان يبكين من دون سببٍ أمام مسلسلٍ هزليّ رديء، أو يبتسمن بطريقة رائعة في المترو، وحينئذٍ سوف تعلمون عن ماذا أتحدّث. غالباً ما يكون الموقف متأرجحاً: تحبّ امرأة عزباء رجلاً متزوّجاً، وهو لا يريد أن يترك زوجته، وهذا أمرٌ مروّع وبغيضٌ وتافه. في حالتنا نحن، كلانا كنّا متزوّجين حينما التقينا. كان التوازن يكاد يكون تامّاً. فقط، أنا من وقعتُ في حبّها أوّلاً: أنا مَن انفصلتُ عن زوجتي، في حين لم تكن أليس تنوي أبداً أن تنفصل عن زوجها. لماذا ستترك زوجها من أجل رجلٍ مجنونٍ يصرخ على رؤوس الأشهاد أنّ الحبّ يدوم ثلاث سنوات؟

ربّما كان عليّ أن أقول لها إنّني لا أعتقد ذلك فعلاً ولكن لكان ذلك كذباً. والحال أنني سئمتُ بما فيه الكفاية من الكذب. سئمتُ من حياتي المزدوجة. تعدّد الزوجات مسألة شرعية تماماً في فرنسا: يكفي أن يكون المرء موهوباً في فنّ الكذب. لا يحتاج المرء إلى أن يكون ساحراً بارعاً لتكون لديه عدّة زوجات. هذا يتطلّب فقط القليل من الخيال والكثير من التنظيم. أعرف الكثير من الرجال الذين لديهم خليلات في فرنسا منذ عام 1995. كلّ مساء، يختارون المرأة التي

يرغبون في طلبها، وأسوأ ما في الأمر أنّ المسكينة التي يقع عليها الخيار تهرول إليه. وللقيام بهذا الأمر، يجب أن يكون المرء دبلوماسياً ومنافقاً، والأمران الشيء نفسه تقريباً. ولكنني سئمتُ من هذا ولم أعُد أقوى عليه. ولأنني أصلاً مصابٌ بالشيزوفرينيا في حياتي المهنية، أرفض أن أصبح كذلك في حياتي العاطفية. أرى أنّ الأمر سيكون جميلاً أن لا نفعل إلّا شيئاً واحداً ولمرّة واحدة.

النتيجة: أصبحتُ وحيداً من جديد.

الحبّ كارثة رائعة: أن يعرف المرء أنّه سيرتطم بالجدار ومع ذلك يُضاعف من سرعته؛ أن يُسابق إلى خسارته والابتسامة على شفتيه؛ وأن ينتظر بشوقٍ وفضول اللحظة التي سيخفق فيها الحبّ. الحبّ هو الإحباط المبرمج الوحيد، إنّه الشقاء المتوقّع الذي يجدّد المرء المطالبة به. هذا ما قلته لأليس، قبل أن أتوسّل إليها راكعاً لكي تذهب معي - عبثاً.

17

مآزق

ذات يوم، دخل الشقاء إلى حياتي وأنا، كرجلٍ غبي، لم أعُد أستطيع أن أطرده من داخلي.

الحبّ الأقوى والأمتن هو الحبّ من طرفٍ واحد، أي ذاك الذي لا يقاسمكَ إياه الطرف الآخر. ربّما كنتُ لأفضّل ألا أعرف ذلك أبداً، ولكن هذه هي الحقيقة: ليس هناك ما هو أسوأ من أن تحبّ شخصاً لا يبادلك الحبّ، وفي الوقت نفسه هو الشعور الأجمل الذي لم يسبق لي أن عشتُ مثله. أن تحبّ شخصاً يحبّك هو الآخر هو نوعٌ من النرجسية. أمّا أن تحبّ شخصاً لا يبادلك الحبّ نفسه فهذا هو الحبّ بعينه. بحثتُ عن اختبارٍ، عن تجربة، عن موعدٍ مع ذاتي يمكنه أن يُحدث تحوّلاً في داخلي: لسوء الحظّ، تمّت الاستجابة لرغبتي هذه بما يفوق توقّعاتي وآمالي. أنا أحبّ فتاة هي لا تحبّني ولم أعُد أحبّ الفتاة التي تحبّني. أنا أستخدم النساء لكي أقوم بازدراء ذاتي.

«سأل أحد الأتباع: ما هو الحبّ؟

أجاب المعلّم: يمكننا القول إنّ الاعتزاز بالجهد أكثر من الاعتزاز بالمكافأة هو الحبّ. إنه مجرد استمتاع بعمل شيء من دون النظر إلى المكافأة التي يمكن الحصول عليها في النهاية، هذا هو الحب». (كونفوشيوس)

شكراً، أيّها الماكر المشرقي، ولكنني لن أتنازل عن المكافأة أيضاً. بانتظار ذلك، أنا الآن رجلٌ مهجور تُرِك وحيداً. ما إن علِمَت أليس أنّ زوجتي قد هجرتني أحسّت بالخوف وتراجعت عن التقرّب منّي. لم تعُد تتّصل بي هاتفياً ولا تُرسل إليّ رسائل على البريد الصوتي 3672، ولا أرقام غرف الفنادق على المجيب الآلي لهاتف بي-بوب(*). أنا مثل عشيقة صغيرة مزعجة تنتظر أن يتذكّر رجلها المتزوّج وجودها. أنا الذي لم أكن أتردّد إلّا على الشوارع العريضة، وجدتُ نفسي «شارعاً خلفياً». يؤرقني سؤالٌ وحيد باستمرار ويلخّص كلّ تجربتي:

(*) هاتف بي-بوب وخدمة ميموفون 3672، هي اختراعات تكنولوجية لشركة فرانس تيليكوم مخصّصة حصرياً لتشجيع العلاقات غير الشرعية وذلك بهدف الاستعاضة عن لمسة «Bis» النمّامة وصفقات المخدّرات المبرمة بفضل لمسة «Tatoo». -المؤلف-

أيّهما أسوأ: ممارسة الجنس من دون حبّ، أم الحبّ من دون ممارسة الجنس؟

أشعر أنني مثل ميلو(*) حينما يعاني من نوبات الضمير، من جهة مع ملاكٍ صغيرٍ يقول له أن يفعل الخير، ومن جهة أخرى مع شيطان صغير يحثّه على فعل الشرّ. بالنسبة إليّ، لديّ ملاكٌ صغير يريدني أن أعود إلى زوجتي، وإبليسٌ صغير يوسوس لي أن أقيم علاقة مع أليس. هناك دائماً في رأسي برنامجٌ حواري بين الاثنين، في بثّ مباشر. ربّما فضّلتُ لو أنّ الإبليس أمرني بأن أحبّ زوجتي.

(*) ميلو: شخصية كرتونية، وهو كلب تان تان الشهير. -المترجم-

18

نجاحات وإخفاقات

الحياة عبارة عن مسلسل كوميدي: عبارة عن سلسلة متتابعة من المشاهد التي تجري دائماً في الديكورات نفسها، وتقريباً مع الشخصيات نفسها والتي ننتظر حلقاتها القادمة بفارغ صبر مشوبٍ بشيء من البلاهة. دخول أليس إلى المشهد داخل هذه السلسلة فاجأني كما لو أنّ واحدة من **ملائكة تشارلي**(*) الثلاث كانت تُبحر على متن سفينة **هيلين والصبيان**(**).

لكي أصفَ لكم أليس، سوف أكون صريحاً ومباشراً بلا مواربة: إنّها نعامة. كتلك الإوزّة التي تجري، وهي طويلة

(*) ملائكة تشارلي: مسلسل أميركي بث على قناة إي بي سي لمدة خمسة مواسم من 1976 إلى 1981. -المترجم-

(**) هيلين والصبيان: مسلسل كوميدي فرنسي من 280 حلقة بث من 1992 إلى 1994. -المترجم-

القامة، ومتوحّشة وتختبئ حالما تستشعر الخطر. ساقاها الطويلتان جدّاً والرفيعتان تحملان تمثالاً نصفياً شهوانياً موهوباً بثمرتين متغطرستين. وشعرها الطويل، الأسود والمسترسل، يطوّق وجهها المكتنز بقدر ما هو لطيف وعذب. يبدو جسد أليس وكأنّه قد صُمِّم خصيصاً لكي يُزعزع الرجال المتزوجين الذين لم يطلبوا أيّ شيء - أو لم يكونوا يطلبون ما هو أفضل. هذا ما يميّزها عن النعامة (مع حقيقة أنّ أليس لا تبيض بيضاً تزن الواحدة منها 1 كلغ: ولقد أُتيحت لي الفرصة لكي أتحقّق من ذلك فيما بعد).

أتذكّر جيّداً لقاءنا الأوّل، أثناء مراسم دفن جدّتي التي جئتُ أحضرها من دون زوجتي، والتي كانت الالتزامات الأسرية فيها مملّة حقّاً. الأسرة بالفعل على شيء من الصعوبة حينما تكون أسرتكم، فتخيّلوا حينما تكون أسرة غيركم... يُضاف إلى ذلك أنني كنتُ أنا من أكّدتُ لأليس أنّ الأمّ الصالحة لن تنتبه إلى غيابها عن المراسم. لا أدري، لا بدّ أنني شعرتُ بأنّ شيئاً ما سيحدثُ لي.

كان كلّ مَنْ في الكنيسة يراقبون جدّي لكي يروا إنْ كان يبكي. كنتُ أُصلي في قلبي وأقول: «**ربّاه، أعِنْه على أن يتماسك وامنحه الصبر**». لكنّ الخوري كان لديه عرض خاصّ وسرّ خفيّ: فقد ذكر السنوات الخمسين من زواج الأب

الصالح مع الأم الصالحة. بدأت عين جدّي، الكولونيل المتقاعد، بالاحمرار. حينما ذرف دمعة، كان ذلك بمثابة إشارة البداية: فتح جميع أفراد الأسرة مآقيهم، وسالت دموعهم وأجهَشوا بالبكاء، وانتشروا وهُم يشاهدون النعش. لم يكن بوسعهم أن يتخيّلوا أنّ الأمّ الصالحة ترقد داخل ذاك النعش. لا بدّ أنّ جدّتي ماتت لكي أُدرك إلى أيّ درجة كنتُ متعلّقاً بها. تبّاً! حينما لم أكُن أهجر الناس الذين أحبّهم، كانوا هم يموتون. بدأتُ بالبكاء من دون أيّ تحفّظ لأنني كنتُ صبيّاً سريع التأثّر والانفعال.

حينما زالت الغشاوة عن عينيّ، لمحتُ فتاة سمراء جميلة كانت تراقبني. كانت أليس قد رأتني وأنا أذرف الدموع. لا أدري إنْ كان ذلك بسبب العاطفة، أو بسبب التناقض مع المكان، ولكنني شعرتُ بانجذابٍ شديد إلى ذلك الظهور في بلوزة ضيّقة سوداء اللون. اعترفت لي أليس فيما بعد بأنّها قد وجدتني وسيماً جدّاً: لنضع هذا الخطأ في التقدير على حساب الغريزة الأمومية. ما هو جوهري في الأمر أنّ انجذابي إليها كان متبادلاً - كانت ترغب في أن تواسيني، وكان ذلك واضحاً. علّمني هذا اللقاء أنّ أفضل شيء يفعله المرء في أثناء مراسم دفن جنازة هو أن يقع في الحبّ.

كانت أليس صديقة إحدى بنات عمّي. قدّمت لي زوجها

أنطوان الذي كان في غاية اللطف والودّ. بينما كانت تقبّل خدّي المبلّلين بالدموع، أدركَت أنني قد أدركتُ أنّها قد رأتْ أنني قد رأيتُ أنّها قد نظرتْ إليّ مثلما نظرتُ إليها. سوف أتذكّر إلى الأبد أوّل شيء قلته لها:

- أحبّ كثيراً البنية العظمية لوجهكِ.

أُتيحت لي الفرصة لكي أتأمّل تفاصيلها. امرأة شابّة في السابعة والعشرين من عمرها، جميلة ببساطة. رفيف رموشها وضحكتها المحتشمة التي تجعل قلبك يثبُ في قفصك الصدري الذي يضيق فجأةً. رائعة وجذّابة، بنظراتها المختلسة، وشعرها الغزير، والانحناءة الخفيفة في أسفل ظهرها، وأسنانها الناصعة البياض. كانت مثل ماوغلي كارديناليي في فيلم (**إل غاتوباردو**)(*). مثل بيتي بيج(**) طولها متر وسبعة وسبعون سنتيمتراً. مجنونة باعثة للاطمئنان. مثل مفجّرٍ هادئ، بذخيرة هائلة. صديقةٌ، عدوّة.

كيف حصل أنّنا لم نلتقِ قط من قبل؟ ماذا أفادني أن أعرف الكثير من الناس إن لم تكن هذه الفتاة جزءاً منهم؟

(*) إل غاتوباردو: الفهد، هي رواية للكاتب جوزيبي توماسي دي لامبيدوزا وقد أخرج المخرج الإيطالي لوتشيانو فيسكونتي عام 1963 فيلماً يحمل الاسم ذاته، من بطولة بورت لانكاستر وكلاوديا كارديناليي وآلان ديلون. -المترجم-

(**) بيتي بيج: عارضة أزياء أميركية، اشتهرت في خمسينيات القرن العشرين بصورها المثيرة والاستعراضية. -المترجم-

كان الجوّ بارداً في فناء الكنيسة. كانت مثيرة للغاية: وجهها على نقاءٍ يتناقض مع جسدها الشهواني، فهذا هو تماماً النمط الذي أفضّله، فلا أحبّ شيئاً بقدر ما أحبّ التناقض بين وجهٍ ملائكي وجسد مُغرٍ. لديّ معايير متناقضة.

أدركتُ في تلك اللحظة الحاسمة أنني قد أدفع أيّ شيء كان في سبيل أن أدخل إلى حياتها، إلى دماغها، إلى سريرها، بل وإلى كلّ شيءٍ فيها. قبل أن تكون نعامة، كانت تلك الفتاة مانعة صواعق: كانت تجذب الصواعق إليها.

سألتها:

- هل تعرفين بلاد الباسك؟

- كلا، ولكن يبدو أنّها بلادٌ جميلة.

- هي ليست جميلة، بل رائعة. يا لها من خسارة لكوني متزوّجاً وأنتِ أيضاً متزوّجة، فلولا ذلك لاستطعنا أن نكوّن أسرة في مزرعة من ذلك الإقليم.

- مزرعة وفيها خراف؟

- بالطبع، فيها خراف. وأيضاً إوزّ لكي نعدّ وجبات من كبدها، وأبقار لكي نشرب من حليبها، ودجاج لنستفيد من بيضها، وديك للدجاج، وفيل عجوز حسير البصر، وما يقارب عشر زرافات، والكثير من النعامات التي تشبهكِ.

- أنا لستُ نعامة، أنا مانعة صواعق.

– أوه، أوه! وإنّكِ علاوة على ذلك تقرئين أفكاري، إلى أين نذهب؟

بعد أن غادرَت المكان، تجوّلتُ فَرِحاً جدّاً وخالياً من الهموم في ربوع غيتاري، قرية بول جان توليه وفردوس طفولتي. تنزّهتُ في القرية منتعشاً وخفيفاً مع أنني أكره النزهات (ولكن لم يهتمّ أحدٌ بذلك: يقوم الناس دائماً بأشياء عبثية بعد مراسم الدفن)، تمشيّتُ على شاطئ أمام البحر وأنا أستعرض بالنظر كلّ صخرة، وكلّ موجة، وكلّ حبّة رمل. شعرتُ بأنّ روحي تفيض. كانت كلّ السماء لي. كان ساحل الباسك يجلب لي الحظّ أكثر من خليج ريو. ابتسمتُ للغيوم الهاجعة في السماء وللأمّ الصالحة التي لم تكن غاضبة منّي.

19

الهروب من السعادة
خوفاً من أن تهرب

يجب أن نحسم الأمر: إمّا أن نعيش مع امرأة، أو نشتهيها. لا يمكننا أن نشتهي ما هو بحوزتنا، هذا أمرٌ مخالفٌ للطبيعة. هذا هو السبب الذي من أجله تنهار حيوات زوجية جميلة بفعل أيّ امرأة مجهولة تحطّ رِحالها في حياتك. حتى إذا كنتَ متزوّجاً من أجمل فتاة في الدنيا، سوف تكون هناك على الدوام فتاة مجهولة جديدة تقتحم حياتك من دون استئذان، وسوف تؤثّر فيك مثل مفعول عقار مثير للشهوة فائق القدرة. والحال، وهذا ما زاد في الأمور خطورةً، أنّ أليس لم تكن أيّ فتاة مجهولة. كانت ترتدي بلوزة ضيّقة سوداء اللون. بلوزة ضيّقة سوداء بوسعها أن تغيّر مجرى حياتين.

تأتي كلّ اهتماماتي من عَجزي الطفولي في التخلّي عن التجديد، ومن حاجة مرضيّة إلى الاستسلام للانجذاب إلى آلاف الاحتمالات التي لا تُصدّق والتي يخبّئها المستقبل. إنّه

من الجنون أنّ ما لا أعرفه يُثيرني أكثر ممّا أعرفُه سابقاً. ولكن هل أنا شخصٌ غير طبيعيّ؟ ألا تفضّلون أن تقرأوا كتاباً لم يسبِقْ لكم أن قرأتموه، وأن تشاهدوا عرضاً مسرحياً لا تحفظون حواره عن ظهر قلب، وأن تنتخبوا أيّ شخصٍ كان رئيساً للبلاد بدلاً من الرئيس الموجود في السلطة؟

أجمل ذكرياتي مع آن تعود إلى فترة ما قبل زواجنا. الزواج مجرمٌ لأنّه يقتل السرّ. تُقابلُ مخلوقة ساحرة طافحة بالإغراء، فتتزوّجها وفجأةً تتبخّر المخلوقة الساحرة والمغرية: لقد أصبحَت زوجتكَ! زوجتكَ! يا لها من إهانة، يا لها من إذلال للمرأة! في حين أنّ ما ينبغي على المرء البحث عنه طوال حياته من دون توقّف هو امرأة لا تكون ملكاً له أبداً!
(من هذا الجانب، كان طلبي سيُلبّى مع أليس).

يبدو لي أنّ كلّ مشكلة الحب تكمُن في الآتي: لكي يكون المرء سعيداً يحتاج إلى الأمان؛ في حين لكي يكون عاشقاً يحتاج إلى عدم الأمان. السعادة تعتمدُ على الثقة، في حين أنّ الحبّ يتطلّب شكّاً وقلقاً. باختصار، وعلى نحوٍ عام، لقد خُلق الزواج على أنّه من أجل جعل المرء سعيداً، ولكن ليس لكي يبقى عاشقاً. والوقوع في الحبّ ليس الوسيلة المثلى للظفر بالسعادة، وإذا كانت تلك هي الحالة، لبعض الوقت فإنّ الحقيقة سوف تُعرَف في النهاية. لا أدري إن كنتُ

واضحاً جدّاً في كلامي، ولكنني أفهم ما أقول: ما أريد قوله هو أنّ الزواج يخلط بين أمورٍ لا تستوي بعضها مع بعض.

لدى العودة إلى باريس، تغيّرت نظرتي إلى الأمور. كانت آن قد سقطت من بُرجها العالي. مارسنا الحبّ من دون قناعة. كانت حياتي على وشك أن تنهار. هل ترَون الطابق الخامس والثلاثين تحت الأرض؟ حسناً، أنا كنتُ أنتقل إلى الطابق السفلي.

ليس هناك حبّ سعيد.

ليس هناك حبّ سعيد.

ليس هناك حبّ سعيد.

كم من المرّات ينبغي أن تُعاد هذه العبارة قبل أن تترسّخ تماماً في جمجمتكَ، أيّها الغبيّ؟

20

الجميع يهرب

حينما تنظر فتاة جميلة إليك كما نظرتْ إليّ أليس، ثمّة احتمالان لا ثالث لهما: إمّا أن تكون هي شعلة وأنتَ في خطر، وإمّا أن لا تكون شعلة وتكون أنت في خطر أكبر بكثير.

كنتُ محارة وادعة ومرتاحة في قوقعتها المُحْكَمَة الإغلاق، وفجأةً، لم أجد سوى أليس لكي تقطفني وتفتح فمي وتعصر عليّ الليمون.

لم أكفّ عن ترداد هذا الكلام على نفسي:

- يا رب، اجعَلْ هذه الفتاة تحبّ زوجها، وإلّا سأكون في ورطة!

لم أعطِ لأليس علامة حياة. كنتُ آمل أنّ الزمن سوف

يُزيل هذه الوخزة في القلب. وكنتُ محقّاً في ذلك: لقد طمسَ الزمن مشاعري وأزالها، ولكنّه لم يطمس ما أردته. كانت آن ضحية ذلك، وسط استيائي الشديد. هناك الكثير من الحزن على الأرض، ولكن من الصعب التغلّب على الحزن الذي يغزو امرأة حينما تشعر بأنّ الحبّ الذي كان يُكَنّ لها قد زال، تدريجيّاً، وليس بين ليلة وضحاها، كلا، وبطريقة لا تُقاوم، تماماً مثلما ينساب الرمل من الساعة الرملية. تحتاج المرأة إلى رجلٍ يُعجَب بها لكي تبتهج وتزيد ألقاً، على الأقلّ أنا أرى الأمور بهذه الطريقة. الزهرة تحتاج إلى الشمس. كانت آن تذبل تحت أبصاري الغائبة. ماذا كان بوسعي أن أفعل؟ الزواج، الزمن، أليس، العالم، طواف الكواكب، البلوزات الضيّقة السوداء، أوروبا واتفاقية ماستريخت، كان كلّ شيء يبدو وكأنّه يتحالف ضدّ حياتنا الزوجية البريئة.

لقد هجرتُ زوجتي، ومع ذلك كنتُ أودّع نفسي. ربّما لم يكن الأقسى هو الانفصال عن آن وإنّما التخلّي عن جمال قصّتنا. كنتُ أشعر بما يشعر به شخصٌ يترك مشروعاً احتفظَ به في قلبه منذ زمنٍ طويل: يشعر بالخيبة والارتياح في آنٍ واحدٍ.

21

علامات استفهام

حينما أصادف صديقاً في الشارع، غالباً هذا ما يحدث بيننا:

- مرحباً! مرحباً، هل أنت بخير؟
- كلا، وأنت؟
- ولا أنا.
- حسناً إذاً، إلى اللقاء القريب.
- أهلاً بك.

أو يُصادفني أحد الأصدقاء ويروي لي نكتة:

- هل تعرف ما هو الفرق بين الحبّ ومرض القوباء؟
- . . .
- هيّا. . . حاول. . . ألم تحزر؟
- . . .

الأمر بسيط جدّاً: مرض القوباء يدوم مدى الحياة.

- . . .

لا أضحك للنكتة لأنني لا أرى ما هو مثيرٌ للضحك فيها. لا بدّ أنني فقدتُ روح الدعابة في الطريق.

من المزعج جدّاً أن يُلاحظ المرء أنّ لديه الاستفسارات والأسئلة نفسها التي يطرحها جميع الناس. هذا درسٌ في التواضع.

هل لديّ الحقّ في أن أهجر شخصاً يحبّني؟
هل أنا قمامة؟
ما الجدوى من الموت؟
هل سأرتكب الحماقات نفسها التي ارتكبها والداي؟
هل يمكن للمرء أن يكون سعيداً؟
هل يمكن للمرء أن يقع في الحبّ دون أن ينتهي ذلك إلى دماء ودموع؟
ألن يكون بوسعي أن أكسب **أكثر بكثير** من الأموال إذا عملت **أقلّ بكثير**؟
أيّ نوعٍ من النظارات الشمسية يجب على المرء أن يضعها حينما يكون في فورمينتيرا؟

بعد عدّة أسابيع من الحيرة والعذاب، توصّلتُ إلى النتيجة الآتية: حينما تبدأ زوجتك تصبح صديقتك، يحين الوقت لكي تَعرض على صديقة أن تُصبح زوجتك.

22

لمّ الشمل

المرّة الثانية التي رأيتُ فيها أليس كانت في مناسبة عيد ميلاد ما سوف يهدر الحديث عنه وقتنا.

على العموم، زاد عمر إحدى صديقات آن سنة إضافية ووجدت من المفيد أن تحتفل بهذه المناسبة. حينما تعرّفت على الطيف الرشيق لأليس (كانت بشرتها أكثر طراوة من اللدائن)، كنتُ أقوم بتقديم كأس من الشامبانيا إلى آن. واصلتُ ملء كأسها حتى طفح الشراب قليلاً عن حافته ففاض على غطاء الطاولة. كانت أليس تشرب المشروب مع زوجها. احمرّ وجهي وأصبح قانياً. تجرّعتُ كأسي من الويسكي جرعةً واحدة. اضطررتُ لأن أخفض رأسي وأنظر إلى قدميّ لكي أستطيع أن أمشي من دون أن أتعثّر. وقد أتاح لي هذا أن أخفي احمرار وجهي خلف شعري الطويل.

هربتُ من زوجتي وهرعتُ إلى المراحيض لكي أتأكّد من تسريحة شعري وحلاقة ذقني، وأنزع نظارتي، وأنفض قشرة

الرأس عن كتفَي سترتي، وأقتلع شعرة كانت قد برزت من منخري الأيسر. ما العمل الآن؟ هل أتجاهل أليس؟ لاجتذاب الفتيات الجميلات، لا ينبغي التحدّث إليهنّ. يجب التصرّف كما لو أنّهنّ غير موجودات. ولكن ماذا لو غادرت المكان؟ كانت فكرة أنني لن ألتقي مع أليس مرّة أخرى بمثابة محنة بالنسبة إليّ. وبالتالي كان عليّ أن أتواصل معها من دون أن أتحدّث إليها مباشرةً. عدتُ إلى الصالون لكي أمرّ من أمام أليس متظاهراً بأنني لم أرَها.

- مارك! ألم تعد تُلقي عليّ التحيّة؟

تلعثمتُ وتداخلت كلماتي وتشوّهت المفردات على شفتي:

- أوه! أليس! سُحقاً لي! اعذريني، أنا لم أعرفكِ! أنا... سعيدٌ... بأن... أراكِ... من... جديد...

- وأنا أيضاً! هل أنت بخير؟

كانت اجتماعية، لامبالية، ورهيبة، ونظرتها شاردة.

- هل تتذكّر أنطوان، زوجي؟

صافحني زوجها ببرود وسألني:

- ألا تعرِّفنا على زوجتك؟

- حسناً... لقد ذهبتُ إلى المطبخ لكي تضع الشمعات على قالب الكاتو...

في الوقت الذي كنتُ أنهي فيه جملتي، انطفأت الأنوار

وبدأت أفراح عيد الميلاد وأغانيه الخاصّة واختفت أليس وسط المحتفلين.

رأيتها تُمسك بيد أنطوان ويبتعدان معاً كما لو أنهما يسيران على جهاز تمارين الجري، بينما كانت سيّدة المنزل تضحك لاقترابها عاماً آخر من شيخوختها وسط تصفيق صديقاتها اللواتي كنّ بعمرها نفسه.

أنتم الذين تقرأون لي الآن، لقد رأيتم بكلّ تأكيد على شاشة التلفاز عملية نسف مبانٍ قديمة بطريقة منضبطة: فأنتم تعلمون، عندما يتمّ تدمير المباني القديمة المخصّصة للسكن بإيجار معتدل (HLM) باستخدام مادة الديناميت المتفجرة، نرى بعد بضع ثوانٍ من بدء العدّ التنازلي أنّ العمارة تتداعى وتنهار على نفسها ركاماً على هيئة طبقات وسط غيومٍ من الغبار المتصاعد والأنقاض. هذا بالضبط ما أحسستُ به.

كانت أليس تسير مع زوجها أنطوان نحو المخرج. كان عليّ أن أتصرّف وأفعل شيئاً. استعدتُ المشهد كاملاً ببطء كما لو أنّه قد حدث البارحة. تابعتهما بأنظاري حتى بلغا حجرة إيداع المعاطف والقبّعات. هناك، بينما كان أنطوان يفتّش بين الشماعات الكثيرة، أدارت أليس عينيها السوداوين الطافحتين باتجاهي. همستُ قائلاً:

- هذا غير ممكن، يا أليس، هذه لستِ أنتِ... ألَم

يحدث أيّ شيء في الشهر الماضي في غيتاري؟ ومزرعة النعامات خاصّتي، ماذا سأفعل بها؟

أشرَقَ وجهها نعومة. أخفَضَت عينيها وقالت بكلّ لطف وبصوتٍ خفيضٍ للغاية إلى درجة أنني تساءلتُ في نفسي إن لم أكُن أحلم، دعَت فقط أن تسقط كلمتين من بين شفتيها وهي تلامس يدي خلسة وبخفّة، قبل أن تتوارى مع زوجها عن الأنظار:

- أنا خائفة...

كان مصيري قد تحدّد. سألتني آن عبثاً: «مَن تكون هذه الفتاة؟»، كانت العمارة تُبنى من جديد، على نحوٍ متسارع. كان يُعاد فيديو تفجيرها إلى الوراء. كانت عدّة فرق موسيقية تحيي حفل افتتاحها. كان الاحتفال بعيد الرابع عشر من يوليو، مع الفوانيس وعروض الرقص الختامية! وخطاب عمدة المركز التجاري بارلي 2! ونقل تلفزيوني مباشر على شاشة قناة فرانس 3 في إيل دو فرانس! كانت الجماهير تنتحر فرحاً! ضربة! ضربة! الحفل الشعبي ينتحر من البهجة! موت جماعي! إنّه إقليم غويان محتفلاً! رالي معبد الشمس! يموت الناس وهم يذبحون أنفسهم بالثناء! إنّه الجنون، اللعنة!

أجمل الحفلات هي تلك التي تُقام في داخلنا.

23

الرحيل

سُحرتُ وانبهرتُ للتوتّر الكهربائي العالي الواضح والملموس والمرتعش، الذي يمكنه أن يحدث بين رجلٍ وامرأة لا يعرفان بعضهما بعضاً، من دون أسبابٍ خاصّة، هكذا بكلّ بساطة لأنّهما معجبان بعضهما ببعض ويجهدان لكي لا يُظهِرا ذلك.

ليست هناك أيّ حاجة إلى الكلام. المسألة مسألة إيماءات وحركات. إنّها أشبه بأحجية، باللغز الأكثر أهمية في حياتك. الناس المبتذَلون يسمّون هذه المسألة بالإثارة الجنسية، في حين أنّها ليست سوى إباحية، أي الصدق. يمكن للعالم أن ينهار، وأنتم ليست لكم عيونٌ إلّا من أجل تلك العيون الأخرى. تعرفون ذلك الآن في أعمق أعماقكم.

تعرفون أنّكم تستطيعون أن ترحلوا على الفور مع هذا

الكائن الذي لم تبادِلوه سوى ثلاث جُمَل. «الرحيل»: الكلمة الأجمل في اللغة الفرنسية. تعرفون أنّكم على استعداد لأن تستخدموها. «فلنرحل». «يجب أن نرحل». «ذات يوم، سوف نستقلّ القطارات الراحلة» (بلوندان). لقد أعددتم أمتعتكم، وتعلمون أنّ الماضي ليس سوى ركامٍ مرتبك موضوعٍ خلفكم ينبغي نسيانه، منذ أن وُلدتُم. تعلمون أنّ الذي حدث خطيرٌ جدّاً، ومع ذلك لم تفعلوا شيئاً للتوقّف عن ذلك. تعلمون أن ليس هناك مخرج آخر. تعلمون أنّكم سوف تتسبّبون بالمعاناة والألم، وأنّكم كنتم ربّما ستفضلون تجنّب ذلك، وأنّه ربّما كان عليكم أن تتروّوا وأن تتمهّلوا وتفكّروا، ولكن «الرحيل»، «الرحيل!» هو أقوى من كلّ شيء. يبدأ كلّ شيء من نقطة الصفر. وخانة «الرحيل» تَعِدُ وتبشّر بالكثير. وبهذه الطريقة كنّا نمتنع حتى الآن عن التنفّس تحت الماء، ونحبس أنفاسنا. المستقبل هو الكتف العارية لامرأة مجهولة. تمنحك الحياة فرصة ثانية؛ ويُعيد التاريخ نفسه.

يمكن للمرء أن يعتقد أنّ هذا الجذب سطحي ولكن في الحقيقة ليس هناك ما هو أعمق منه؛ نحن مستعدّون لكلّ شيء؛ نقبل بأوجه القصور؛ ونتسامح مع العيوب؛ بل ونبحث عنها بإعجاب.

لا ننجذب قطّ إلّا عبر نقاط الضعف.

كانت أليس مضطربة، كنتُ أثير الخوف فيها! الخوف! ومع ذلك، لم تكن هي الأكثر رعباً بالتأكيد. ومع ذلك، لم أكن أبداً على هذه الدرجة من الابتهاج بإخافة شخص.

لم أكُن أعلم بأنني سوف أندم على ذلك.

24

جمال البدايات

في أحد مواعيدنا السريّة، وبعد أن التقينا في فندق هنري الرابع في ساحة دوفين، اصطحبتُ أليس إلى مقهى بوبورغ. لا أدري لماذا، لأنني كنتُ أكره ذاك المكان الكئيب والموحش مثل كلّ المقاهي المبالغ في تصميمها. هذه المقاهي هي اختراع للباريسيين لإيواء القرويين فيها في حين هم ينصرفون إلى تناول الغداء بهدوء في مقهى فلور. لدى الخروج إلى الساحة، أمام مصنع جورج بومبيدو، توقّفنا تحت ساعة (جينيترون) التي كانت تعدّ الثواني التي كانت تفصلنا عن رأس سنة 2000.

- كما ترين يا أليس، هذه الساعة ترمز إلى حبّنا.

- ماذا تقول؟

- لقد بدأ العدّ العكسي... ذات يوم، سوف تشعرين بالملل، وسوف أثير غيظكِ، وسوف تعاتبينني بأنني لم أطبق

غطاء المرحاض، وسوف أمضي السهرة أمام التلفاز حتى تنتهي كلّ البرامج، وسوف تخونينني مثلما تخونين أنطوان في هذه اللحظة.

- لا بأس، ها قد بدأت من جديد... لماذا لا تستطيع الاستمتاع باللحظة الراهنة، بدلاً من أن تُقلق نفسك بمستقبلنا؟

- لأنّه لا مستقبل لنا. انظري إلى الثواني التي تمضي، إنّها تقرّبنا من لحظة الشقاء... ليس لدينا سوى ثلاث سنوات لكي نحبّ بعضنا بعضاً... اليوم كلّ شيء مدهش، ولكن بحسب حساباتي، سوف ينتهي الأمر بيننا في... 15 مارس من عام 1997.

- وماذا لو هجرتكَ الآن وفوراً لكي أوفّر الوقت؟

- كلا، كلا، انتظري، لم أقُل شيئاً...

وفي تلك اللحظة بالذات، أدركتُ أنّني حسناً سأفعل فيما لو أغلقتُ فمي على نظريّاتي التافهة.

- آه... ألن تهجري أنطوان، قريباً؟ سيتيح لنا أن نقيم في البيت الصغير في سهوب البراري، ونشاهد أطفالنا وهم يكبرون في الحديقة السحرية...

- نعم، هذا هو، اسخر مني، أكثر! أنت ظريف ولكن لماذا يجب أن تفسد علينا دائماً لحظاتنا السعيدة بنوباتك في الاكتئاب؟

- حبيبتي، إذا ما قمتِ بخيانتي ذات يوم، أعدكِ بأمرين:

أوّلاً، سوف أنتحر، ومن ثمّ سوف أقوم بمشاجرة عائلية معكِ لن تنسيها.

هكذا كنّا نُواصل سيرنا، كزوجين غير شرعيين، نتنزّه خفيةً جنباً إلى جنب، ننظر في أعين بعضنا، ولكننا لا نستطيع أبداً أن نشبك يدينا حينما نصادف أصدقاء زوجتي أو أصدقاء زوجها.

اكتشفتُ معها معنى العذوبة واللطف. أخذتُ دروساً من الطبيعة والحياة. وأعتقد أنّ هذا ما أغراني في أليس. في الزواج الأوّل، نبحث عن الكمال، وفي الزواج الثاني، نبحث عن الحقيقة.

من أجمل ما في امرأة هو أن تكون صحية وسليمة. أحبّ أن تتنفّس **الصحّة**، سجن المتعة هذا! أريد أن تكون لديها الرغبة في أن تجري وتضحك بصوتٍ عالٍ، وأن تلتهم الطعام بشراهة ونهم! أن تكون لها أسنانٌ بيضاء كبياض عينيها، وفمٌ طريّ كسريرٍ واسع، وشفتان كالكرز تكون كلّ قبلة منهما مثل حليّ، وبشرةٌ مشدودة مثل جلد طبلٍ، ونهدان مدوّران مثل الكرات الحديدية، وترقوتان ناعمتان مثل جناحي دجاجة، وساقان ذهبيتان كما لو أنّهما من صناعة شركة توسكانا لإنتاج المنتوجات الذهبية، ومؤخّرة ممتلئة مثل خدّ طفلٍ رضيع، وخاصّة، وخاصّة من دون مساحيق التجميل.

يجب أن تفوح منها رائحة الحليب والعرق، لا رائحة العطر والسجائر.

الامتحان النهائي هو المسبح. الكائنات تكشف نفسها على حافة المسابح: سوف تقرأ امرأة مثقّفة تحت قبعتها كتاباً، وسوف تنظّم امرأة رياضية مباراة لكرة الماء، وسوف تهتمّ النساء النرجسيات باسمرار بشرتهنّ، والمصابات بوسواس المرض سوف يدهنّ أجسامهنّ بالكريمات الواقية من الشمس... على أطراف مسبحٍ، إذا ما التقيتم امرأة ترفض أن تبلّل شعرها لكي لا تُفسِد تسريحتها، اهربوا. وإذا ما غطست وهي تقهقه ضحكاً، اغطسوا.

صدّقوني: لقد جرّبتُ كلّ شيء لكي أمنع نفسي من الوقوع في الحبّ. ضعوا أنفسكم في مكاني: القط الذي لسعه الماء الساخن يخاف أن يحترق. ولكنني لم أستطِع أن أكفّ عن التفكير في أليس. في بعض اللحظات، كنتُ أكرهها، كنتُ أحقد عليها حقّاً، وكنتُ أراها مضحكة، رثّة الثياب، جبانة، مبتذلة، هذه المغفّلة طويلة القامة الرومانسية على نحو زائف والتي أرادت أن تحافظ على حياتها مملّة ومستقرّة، الرعديدة الوقحة والأنانية، والتي تشبه أوليف (زوجة باباي) غير المحبوبة، الغبية، بصوتها العالي عند الغضب وأذواقها في انتقاء الأزياء. ومن ثمّ، في الدقيقة التالية، كنتُ أنظر إلى

صورتها أو أُصغي إلى صوتها الرائع الحنون عبر الهاتف، أو كانت تظهر لي وتبتسم، وكنتُ أُعجَبُ بها، منبهراً بجمالها ورقّتها البالغة، وعينيها المسبيتين للدوار، وبشرتها الناعمة، وشعرها الطويل عديم الوزن. كانت فتاة جامحة، سمراء لا تُقهَر، وهندية دافئة، كانت تشبه إزميرالدا (زوجة كوازيمودو) ويا إلهي كم كنتُ أحمدُ ربّي لأنّه أتاح لي الفرصة لكي ألتقي بمخلوقة كهذه.

وهذا امتحانٌ بسيطٌ لتعرفَ إن كنتَ عاشقاً: إذا ما أمضيتَ أربع أو خمس ساعات من دون عشيقتكَ وبدأتَ تشتاق إليها، فهذا يعني أنّك لست عاشقاً - إن كنت عاشقاً، فسوف تكفي عشر دقائق من الفراق لتجعل حياتك لا تُطاق.

25

شكراً وولفغانغ

أن يخون المرء زوجته ليس فعلاً شريراً للغاية بحدّ ذاته، إذا لم تعلم الزوجة بذلك أبداً. بل وأعتقد أنّ الكثير من الأزواج يُقدِمون على ذلك لكي يعرّضوا أنفسهم للخطر، لكي يخاطروا ويجازفوا من جديد، تماماً كحالهم حينما يسعون إلى إغراء زوجاتهم. بهذا المعنى، ربّما يكون الزنى إعلاناً للحبّ الزوجي. ولكن أيضاً قد لا يكون كذلك. في كلّ الأحوال، أعتقد أنني ربّما واجهتُ صعوبة في جعل آن تتقبّل هذه الفكرة.

أتذكّر آخر عشاء تناولناه معاً وحدنا. ربّما أفضّل ألا أتذكّر ذلك، ورغم ذلك أتذكّره. يبدو أنّ اللحظات التعيسة تصنع الذكريات السعيدة: لطالما أحببتُ أن يكون ذلك صحيحاً. بقدر ما يتعلّق الأمر بي، تبقى تلك الذكريات راسية في داخلي تحت بند «اللحظات التعيسة» ولا أستطيع أن أشعر

حيالها بحنينٍ ما. ربّما أودّ لو أنّني أتجسّد في آلة تسجيل VHS لكي أستطيع أن أمحو هذه الصور التي تُلاحق ذاكرتي.

كانت آن ترهقني باللوم والعتاب، ثمّ كانت تشعر بالأسى لتصرّفها، وكان ذلك يزيد من حزني وأساي. شرحتُ لها أنّ كلّ ما حدث كان نتيجة أخطائي. كنتُ أهذي وأتخيّل أموراً غير حقيقية، وإلّا لماذا قصّرتُ شعري كثيراً خلال ثلاث سنوات من زواجنا؟ كان شعري طويلاً في السابق، وها أنا ذا أدَعه ينمو ويطول من جديد. كنتُ مثل سامسون: حينما كان شعري قصيراً، لم أكن أساوي مسماراً! علاوة على ذلك، لم أجرؤ قطّ على أن أطلب يدها من والدها بحسب الأصول وبالشكل المناسب. إذاً لم يكن الزواج وارداً. كانت تضحك بلُطف على نكاتي. كنتُ أشعر بأنني مزعجٌ ولكنّها كانت تضحك بأسى كما لو أنّها تعرف دائماً أنّ الأمر سوف ينتهي بهذه الطريقة، في هذا المطعم الجميل، تحت هذا الغطاء الأبيض المضاء بنور الشموع، بالحديث مثل صديقين قديمين. حتى أننا لم نبكِ على الطاولة. يمكن للمرء أن يجافي امرأة إلى الأبد، وأن ينكث بكلّ عهوده لها، ويبقى مع ذلك جالساً أمامها دون أن يجعل من ذلك مشكلة.

وأخيراً أخبرتني بأنّها قد وجدت بديلاً عنّي أكثر شهرةً منّي، وأكبر سنّاً وأكثر لطفاً منّي. كان ذلك صحيحاً (وقد

عرفتُ ذلك فيما بعد، وبالطبع كنتُ آخر مَنْ يعلم)، وقد التقت به في مكان عملها. لم أكن أتوقّع ذلك على الإطلاق. غضبتُ منها وصرختُ فيها:

- فتاة شابّة تعاشر رجالاً مسنّين هي بسوء رجلٍ مسنٍّ يُعاشر فتيات صغيرات. هذه مسألة واضحة جدّاً!

أجابتني، قائلة:

- أنا أفضّل رجلاً عجوزاً وسيماً ومريحاً على شابٍّ قبيحٍ وعصبيّ.

لا أدري لماذا تخيّلتُ أنّ آن سوف تبقى أرملة حزينة لا عزاء لها. كما أنني لا أدري لماذا أغاظني هذا الخبر إلى هذه الدرجة الكبيرة. كلا، أعني أنني لم أكُن أجهل السبب. لقد اكتشفتُ بكلّ بساطة أنني كنتُ أعاني من حبّ الذات. كنتُ مغروراً صغيراً. يعتقد أحدنا بأنْ لا بديل له، ولكن سرعان ما يتمّ استبدالنا بآخر. ماذا كنتُ أتصوّر؟ أنّها سوف تنتحر من بعدي؟ أنّها سوف تدع نفسها تموت وتنتهي؟ بينما كنتُ أحلم بأليس، شابّاً أنيقاً مقتنعاً بأنّه سيكون مثل ممثلي **بلاي بوي** محاطاً بالنساء، كانت آن تفكّر في بديلي وتخونني بابتهاج، وقد رتّبت الأمر بحيث يعلم الجميع بذلك. في ذلك المساء، شعرتُ أنني سقطتُ من مكانٍ مرتفع. ما فعلتُه ارتدَّ عليّ، وهذا عادل تماماً. لدى العودة إلى البيت، استمعتُ إلى موزارت من المذياع.

ينتهي الجمال إلى القُبح، مصير الشباب هو أن يذبل، والحياة ليست سوى تدهور بطيء، نحن نموت كلّ يوم. لحسن الحظّ أنّ موزارت يبقى لنا دائماً. كم من الناس أنقذ موزارت حياتهم؟

26

فصلٌ عن الجنس

يجب بالضرورة أن نعود إلى ما هو جوهري، أي الجنس. غالبية النساء المغرورات في محيطي الاجتماعي مقتنعات بأنّ ممارسة الجنس هو عبارة عن الاستلقاء على الظهر مع رجلٍ غبيّ يرتدي بزّة سموكينغ. لقد تكونّت ثقافتهنّ الجنسية في سباق الراليات للأغنياء المتكبّرين، وفي النوادي الخاصّة الأنيقة، وفي مراقص سان تروبيه، برفقة أكثر الشبّان فشلاً في هذا المجال: أبناء الأغنياء. المشكلة الجنسية لأبناء الأغنياء هي أنّهم اعتادوا منذ نعومة أظفارهم أن يأخذوا كلّ شيء من دون أن يعطوا شيئاً. هذه ليست حتى مسألة أنانية (جميع الرجال أنانيون في السرير)، المسألة هي بالضبط أنّ أحداً لم يشرح لهم أنّ هناك فرقاً بين فتاة وسيارة بورش. (حينما تؤذي فتاة، لا يأتي بابا لكي يؤنبك على ذلك).

حمداً لله، لم تكن آن تنتمي إلى هذه الفئة المتطرّفة،

ولكنّها أيضاً لم تكن مهتمّة بالموضوع على نحوٍ خاصّ. حدث هذياننا الأكبر في أثناء فترة زفافنا، في ولاية غوا الهندية، بعد أن دخّنّا عشبة الداتورا. كنّا بحاجة إلى تدخين تلك العشبة لكي نتحرّر تحت الرياح الموسمية القوية. ولكن حسناً، لم تكن هذه الذروة في الشبق سوى هلوسة استثنائية: في الواقع كنتُ مغرماً جدّاً بها في أثناء تلك الرحلة إلى درجة أنني تركتُها تهزمني في لعبة كرة الطاولة، وهذا يدلّ على أنني لم أكن في حالتي الطبيعية. نعم، يا آن، أكشف لكِ ذلك هنا من خلال هذا الكتاب: في رحلتنا بعد الزفاف، تعمّدتُ أن أخسر أمامك في لعبة كرة الطاولة، هل فهمتِ؟؟

ممارسة الجنس هي لعبة يانصيب: يمكن لشخصين أن يعشقا هذه اللعبة كلٌّ على حدة، لا أن يستمتعا معاً بكثيرٍ من اللذّة. يعتقد المرء أنّ بوسع ذلك أن يتطوّر، ولكن هذا لا يتطوّر. هذه مسألة متعلّقة بجلد الإنسان، أي مسألة غير عادلة (مثل كلّ الأمور التي لها علاقة بجلد الإنسان: العنصرية، الحكم على الشخص من خلال لون بشرته، حبّ الشباب...).

علاوة على ذلك، عقّد حنانا الأمور. في حالة الحبّ، يغدو الوضع بالفعل مقلقاً عندما ننتقل من فيلم إباحي إلى الشرثرة الخفيفة. منذ اللحظة التي تنتقل فيها العلاقة من

الانجذاب الجسدي الجامح إلى الدلع الكلامي الطفوليّ، يكون هناك حاجة إلى إطلاق صفّارة الإنذار. نرى ذلك بسرعة فائقة: فحتى الأصوات تتغيّر بعد مضيّ بضعة أشهر على الحياة المشتركة. حتى الرجل الذكوري الضخم المتعالي على النساء ذو الصوت الجهير يبدأ بالكلام مثل طفلٍ صغيرٍ على ركبتي أمّه. وتتحوّل مغوية الرجال القاتلة ذات الصوت الأجشّ إلى فتاة صغيرة متملّقة تخلط بين زوجها وقطٍّ صغير. هُزِم حبّنا أمام نبرات الأصوات.

ومن ثمّ يأتي دور ذاك المفهوم الشنيع المثير للبرودة، المنوّم الأقوى الذي تمّ اختراعه على الإطلاق: **الواجب الزوجي**. إنّ قضاء يوم أو يومين من دون فعل جنسيّ أمرٌ ليس بخطير ولا يستحقّ الحديث عنه. ولكن بعد مضي أربعة أو خمسة أيام، يصبح قلق **الواجب** موضوع نقاش وحديث. وإذا انقضى أسبوعٌ إضافي من دون ممارسة الحبّ، يسأل الجميع عمّا يحدث وتتحوّل المتعة إلى وظيفة وعمل إجباري، ويكفي أن تدع أسبوعاً آخر يمرّ حتى يصبح الضغط غير قابلٍ للتحمّل، وسيصبح هذا الأمر إخفاقاً مضموناً وعلى النقيض من المتعة واللذّة، وهذا هو **الواجب الزوجي**.

لقد تربّى جيلنا تربية بالغة السوء من الناحية الجنسية. نعتقد أنّنا نعرف كلّ شيء لأنّ الأفلام الإباحية قد انهالت علينا

بكثرة وأنّ آباءنا قد قاموا بحسب زعمنا بالثورة الجنسية. ولكن الجميع يعلم أنّ الثورة الجنسية لم تحدث. على مستوى الجنس كما على مستوى الزواج، لم يتحرّك أيّ شيء نحو الأمام قيد أنملة منذ قرنٍ كامل.

نقترب الآن من عام 2000 والأخلاق هي نفسها التي كانت سائدة في القرن التاسع عشر - والأحرى أنّها أقلّ حداثة ممّا كانت عليه في القرن الثامن عشر. الرجال ذكوريون ورُعْنٌ وخَجِلون، والفتيات محتشمات ومنحرفات المزاج ومعقّدات من فكرة أن يُعتَقد أنهنّ نساء شبقات. الدليل على أنّ جيلنا سيئ جنسياً هو نجاح البرامج التي تتحدّث عن الجنس في الراديو والتلفاز، والنسبة الضئيلة للشباب الذين يستخدمون الواقي الذكري في أثناء ممارسة الجنس. هذا خيرُ دليل على أنّهم غير قادرين على الحديث عن ذلك بشكلٍ طبيعي. تخيّلوا إذاً لو كان الشباب سيئين، ناهيكم عن الشباب البرجوازيين... كارثة.

أمّا أليس، فلم تتردّد إلى هذه الحلقات الفاسدة. هي لا تعتبر الجنس واجباً أو وظيفة وإنّما هو لعبة لا بدّ من اكتشاف قوانينها مسبقاً، بل وربّما تعديلها أيضاً. ليس لديها أي محظور، وتجمع كلّ التخيّلات، وتريد أن تستكشف كلّ شيء. من خلال علاقتي معها، استعدتُ ثلاثين عاماً من

التأخّر. علّمتني المداعبة. علّمتني كيف ألمس النساء؛ فكيف كان لي أن أخمّن ذلك لو لم يَقُله لي أحدٌ؟ اكتشفت أنّ بإمكاننا أن نمارس الحبّ في الكثير من الأماكن، مع كلّ أنواع المحفّزات، وفي كلّ الوضعيات. من أجلها، أصبحتُ رجلاً منفتحاً على كلّ هذه الأمور. فلماذا أضع حدوداً لنفسي؟

وجدتُ في نفسي قدرة مذهلة على اختراع قصص بعضها أكثر غرابة من بعضها الآخر، ليس إلّا لكي أهمس بها في جوف أذنها في أثناء الممارسة. ذات يوم، سوف أنشرها في مجموعة سوف تصدم مَن لا يعرفونني جيّداً. في الحقيقة، أصبحتُ شاذّاً جنسياً حقيقياً متعدّد الأشكال، باختصار، أصبحتُ رجلاً محبّاً للمتعة. لا أرى أيّ سبب ليكون للمسنين وحدهم الحقّ في أن يكونوا شهوانيين.

باختصار، إذا كان يمكن لقصّة جنسية أن تصبح قصّة حبّ، فإنّ عكس ذلك نادرٌ جدّاً.

27

مُراسَلة (1)

الرسالة الأولى إلى أليس:

«عزيزتي أليس،

أنتِ مذهلة. لا أعرف لماذا لا يستطيع أحد أن يقول لكِ إنّكِ أعجوبة تحت ذريعة أنّ اسمك أليس.

أشعر الآن بدوار. ربّما كان يجب منع النساء من أمثالك من المشاركة في مراسم دفن جدّاتنا. اعذُريني على هذه الرسالة القصيرة. كانت هذه هي فرصتي الوحيدة لكي أبقى بقربكِ في عطلة نهاية الأسبوع هذه.

مارك».

لا جواب.

الرسالة الثانية إلى أليس:

«أليس،

قولي إذاً إنّك لن تكوني امرأة حياتي، أليس كذلك؟

هناك أمرٌ ما يحدث لنا الآن، أليس كذلك؟

تقولين إنّك تخافين. إذاً، ماذا عليّ أنا أن أقول؟ أنتِ تعتقدين أنني ألهو في حين أنني لم أكن في حياتي جديّاً أكثر ممّا أنا عليه الآن.

لا أدري ماذا أفعل. أرغب في أن ألتقي بكِ ولكنني أعلم أنّه لا ينبغي لذلك أن يحدث. البارحة مساءً، أنجزتُ وظيفتي الزوجية وأنا أفكّر فيكِ. هذا أمرٌ دنيء. أنتِ تعكّرين صفو حياتي وأنا لا أريد أن أعكّر صفو حياتك. سوف تكون هذه رسالتي الأخيرة ولكنني لن أنساكِ في الحال.

مارك».

ملاحظة: «حينما يكذب أحدهم، حينما يقول لامرأة أنّه يحبّها، يستطيع أن يتخيّل أنّه يكذب لكنّ شيئاً ما دفعه إلى أن يقول لها ذلك، وفي المحصّلة هذا صحيح». (ريمون راديغيه)

لا جواب. لم تكن تلك رسالتي الأخيرة.

28

قاع الهاوية

مكتبة
t.me/t_pdf

مرحباً، مرّة أخرى ها أنا ذا، الميّت-الحيّ في الأحياء الجميلة.

وددتُ ألّا أكون سوى رجلٍ كئيب وحزين، وهذه جاذبية؛ بدلاً من أن أوازن بين الميوعة والانهيار. أنا زومبيّ يصرخ مستنجداً لكونه لا يزال على قيد الحياة. وسيكون الدواء الوحيد لصداعي النصفي هو حبّة أسبيجيك عيار 1000 ملغ ولكنني لا أستطيع أن أتناولها لأنني أعاني من ألام شديدة في المعدة. لو أنني فقط ألامس القاع! ولكن كلا. أنا أنزل باستمرار إلى الأسفل، وليس هناك قاعٌ لكي أرتدّ منه وأقفز إلى الأعلى.

أعبُر المدينة من أوّلها إلى آخرها. آتي لكي أنظر إلى العمارة التي تعيشين فيها مع أنطوان. كنتُ أعتقد أنني قد

غازلتكِ من باب التسلية واللعب، وها أنا ذا أجد نفسي شارداً متسكّعاً أمام بابكِ، لاهثاً ومنقطع الأنفاس. الحبّ هو مصدر المشاكل التنفسية.

أنوار شقّتكم مضاءة. ربّما تتناولين العشاء الآن، أو تشاهدين التلفاز، أو تستمعين إلى الموسيقى وأنتِ تفكّرين فيّ، أو من دون التفكير فيّ، أو ربّما أنّكِ... أنّكما... كلا، الرحمة، قولي لي إنّكِ لا تفعلين ذلك. أنا أنزف واقفاً في الشارع، أمام منزلكِ، ولكن ليس هناك دمٌ يسيل منّي، إنّه نزيفٌ داخلي، إنّه غرقٌ في الهواء الطلق. يحدّق المارة فيّ وكأنّهم يقولون: مَنْ هذا الرجل الذي يأتي كلّ يوم ويتأمّل واجهة هذه العمارة؟ أيكون هناك تفصيلٌ معماريٌّ رائع في العمارة لا ننتبه إليه؟ أم أنّ هذا الفتى الذي أهمَلَ حلاقة ذقنه، وترك شعره أشعث، هو شخصٌ جديد من فئة المشرّدين الذين لا مأوى لهم؟ «عزيزتي، انظري: في حيّنا، هناك مشرّدون بلا مأوى يرتدون سترات من ماركة آنييس ب.». «اسكت، أيها الغبيّ، أنت تعرف جيّداً أنّ هذا مروّج مخدّرات بين الشبّان!».

شهر مايو، شهر مايو القبيح جدّاً المتخَم بأيام العطل الرسمية: عيد العمّال، الذكرى السنوية ليوم 8 مايو 1945، عيد الصعود، عيد العنصرة، وتُضاف إليها عطلات نهاية

الأسبوع الطويلة من دون أليس. إنّه حرمانٌ فظيع مدبّر من قبل الدولة والدين الكاثوليكي، وكأنّهما يريدان أن يعاقباني على عدم إطاعتي لكليهما. إنّها دورة تدريبية مكثّفة على الألم.

لم يعُد يهمّني أيّ شيء باستثناء أليس. لقد شغلَت كلّ المكان في داخلي. كلّ الاهتمامات التي كانت تشكّل جزءاً من حياتي كرجلٍ أبله يعيش بأربعة فرنكات فرنسية قديمة، أصبحت من الآن فصاعداً بلا طعم ولا نكهة. أزالت أليس الألوان من الكون وشوّهته. فجأة أصبحتُ مثل مراهقٍ في السادسة عشرة من عمره. حتى أنني اشتريتُ من العطر نفسه الذي كانت تستخدمه لكي أشمّه حينما أفكّر فيها، ولكنّ لم تعُد للعطر تلك الرائحة الطيّبة نفسها لبشرة شهيّة لتلك السمراء الهاجعة ذات الساقين الطويلتين الساحرتين والشعر الشبيه بشعر جنيّة البحر الواهنة. لا يُمكن حَبس كلّ هذا في زجاجة عطرٍ واحدة.

في القرن العشرين، أصبح الحبّ عبارة عن جهاز هاتفٍ لا يرنّ. أقضي كلّ فترة ما بعد الظهيرة في ترقّب أي وَقْعٍ للخطى على الدرج، مثل الكثير من المسرّات الزائفة العبثية بما أنّكِ قد ألغيتِ الموعد الغرامي على عجلٍ عند الظهيرة من خلال بريدنا السرّي. تُرى هل هي أيضاً قصة زنى سارت بشكلٍ خاطئ؟ آه نعم، أعلم أنّ الأمر مملّ، أنا متأسّف: ليس

هناك ما يمكنني أن أفعله إذا كان ذلك في كلّ الأحوال الأمر الأخطر الذي حصل لي على الإطلاق. هذا الكتاب هو كتاب طفلٍ فاسدٍ ومدلّل، وقد كُتِب خصيصاً لكلّ الطائشين الأنقياء جدّاً لدرجة أنّهم لا يستطيعون أن يعيشوا سعداء. كتاب أولئك الذين يلعبون دوراً سيئاً ولا أحد يشتكي منهم. كتاب أولئك الذين عليهم ألّا يعانوا من انفصالٍ هم أنفسهم كانوا سبباً في وقوعه والذين يعانون مع ذلك من ألمٍ يزداد شدّة كلّما عرفوا أنهم هم كانوا المسؤولين الوحيدين عن وقوعه. لأنّ الحبّ ليس فقط أن تتألم أو تؤلم، بل يمكنه أن يكون الاثنين معاً.

29

نظامٌ غذائي مُحبِط

أصبح بقاء المرء وحيداً مرَضاً مخجلاً. لماذا الجميع يهرب من العزلة؟ لأنّها تُرغم على التفكير. لو أنّ ديكارت كان في أيامنا هذه، لما كتب: «أنا أفكّر، إذاً أنا موجود»، وإنّما كان سيكتب: «أنا وحيد، إذاً أنا موجود». لا أحد يرغب في الوحدة، لأنّها تتيح الكثير من الوقت للتفكير. والحال كلّما فكّر المرء أكثر، أصبح أكثر ذكاءً، وبالتالي أكثر حزناً.

أنا أعتقد أنّ لا وجود لأيّ شيء. لم أعُد أؤمن بأيّ شيء. لا أُفيد بأيّ شيء. لم تعُد حياتي تنفعني في أيّ شيء. ماذا سيُعرَض هذا المساء على التلفزيون عبر خدمة الكابل؟

خبرٌ سعيد وحيد: التعاسة تسبّب النحافة. لم يذكر أحد هذا النظام الغذائي، على الرغم من أنّه الأكثر فاعلية من

جميع النُّظُم الغذائية المعروفة. **الاكتئاب المسبّب لنقص الوزن.** هل لديك زيادة في الوزن لبضعة كيلوغرامات؟ انفصل عن زوجتك، اعشق امرأة لا تحبّك، عِشْ وحيداً واجترّ حزنك طوال النهار. سوف تتلاشى زيادة وزنك سريعاً مثلما يذوب الثلج تحت أشعة الشمس. سوف تستعيد جسداً رشيقاً يمكنك الاستفادة منه - إذا نَجَوْتَ من التجربة.

يا لها من خسارة أن أكون عاشقاً، إذ لا يمكنني أن أستفيد حتى من عزوبيتي الجديدة. حينما كنتُ طالباً، كنتُ أعشق أن أكون وحدي. كنتُ أرى أنّ كلّ النساء جميلات. كنتُ أردّد عادة: «ليست هناك نساء قبيحات، ليست هناك سوى أقداح فودكا صغيرة جدّاً». لم تكن تلك مجرّد كلمات يُطلقها مدمنٌ على الكحول طَموح، بل كنتُ مقتنعاً بذلك حقّاً. «لدى كلّ امرأة شيءٌ من الجمال، يكفي أن يكون ذلك مجرّد صمت ممتع، أو تنهيدة شاردة، أو كاحلٍ يرتعش، أو خصلة شعرٍ متمرّدة. حتى حلقة الشَّعر السيئة تُخفي كنزاً دفيناً. حتى الممثّلة ميمي ماتي، ربّما، تقوم بأشياء خاصّة!». ولذلك، كنتُ أنفجر في ضحكتي الرنّانة، تلك التي أستخدمها في رواية نكاتي الخاصّة، تلك التي كانت لي قبل أن أكتشف العزلة الحقيقية.

منذ ذلك الحين، حينما أفرط في تعاطي الكحول، أتمتم

وأتلعثم وحيداً، مثل متشرّد متسوّل. أخرج وأتسكّع في الأحياء المشبوهة وأشتري قارورة منشّطات مخدّرة. أودّ أن أكون صديقاً لهؤلاء السكيرين في ضاحية سان دوني الذين يصرخون مترنّحين بأنّ أجمل نساء العالم كنّ عند أقدامهم، على مرّ الزمن. لكنّ هؤلاء أيضاً لم يقبلوني في أخويتهم: بل أرادوا أن يحطّموا وجهي لكي يعلّموني ما معنى أن أتألّم لأسباب حقيقية. فعدتُ إلى بيتي زاحفاً، ووجهي طافحٌ بالمشروب المنشّط المخدِّر الذي انسكب. وتفوح من فمي رائحة الأقدام النتنة، إذ لم أبلغ هذه الدرجة من الثمالة منذ سنواتٍ خَلَت، مع رغبة فظيعة في التقيؤ والتغوّط في الوقت نفسه، ومن المستحيل القيام بالفعلين في آنٍ واحد، وبالتالي كان عليّ أن أختار بينهما. فضّلت أن أقوم أوّلاً بإخراج إسهالي، فجلستُ على كرسي المرحاض، وارتطم الغائط المائع النتن على بورسلين حوض المرحاض ناثراً رائحة كريهة للغاية، ولكن انتابتني فجأةً رغبة شديدة في أن أتقيّأ، فاستدرتُ لأتقيّأ مادّة صفراء حمضية ضربت وجهي بحوض المغسلة، وأنا أجثو على أربع عاري المؤخّرة وسط رائحة المطهّر، ثمّ سرعان ما عاودني الإسهال بكلّ قوّة وانتهى بي الأمر بأن طرشتُ لتراً من الغائط المائع ذي الرائحة الكريهة على الباب وأنا أبكي وأستنجدُ بأمّي.

30

مُراسَلة (2)

كانت رسالتي الثالثة إلى أليس مُجدِية. شكراً لدائرة البريد: الوسائل الحديثة من هاتف، أو فاكس أو إنترنت لن تتفوّق أبداً في جمالها الرومانسي على الخطر القديم الجميل للاتصال عبر الرسائل المكتوبة.

«عزيزتي أليس،

سوف أنتظركِ كلّ مساء عند الساعة السابعة، على مقعدٍ في ساحة دوفين. سواءٌ أتيتِ أو لم تأتِ، سوف أكون هناك كلّ مساء، بدءاً من مساء هذا اليوم.

مارك».

انتظرتُكِ يوم الاثنين، تحت المطر. انتظرتُكِ يوم الثلاثاء، تحت المطر. يوم الأربعاء، لم يهطل المطر، وحضرتِ. (وكأنها أغنية من أغاني إيف دوتاي).

- هل جئتِ؟
- نعم، يبدو أنني قد جئت.
- لماذا لم تأتِ يومَي الاثنين والثلاثاء؟
- كان المطر يهطل...
- لا أدري ما الذي منعني من أن... أهدي إليكِ مظلّة واقية من المطر.

ابتسمتِ. شبيهة بشخصية فرانسواز في سلسلة **فانتوميت** الروائية، مختفية خلف تسريحة شعركِ بطريقة عويصة. جئتِ بوجهك النقي وشفتيك اللتين كانتا تبتسمان لي من دون أن تفكّري في الإيجابيات والسلبيات. أمسكتُ بيدكِ مثلما أقبض على شيءٍ نفيس. ثمّ ساد صمتٌ مملّ لبعض الوقت وأردتُ أن أكسره:

- أليس، أعتقد أن هذا الأمر خطير...

ولكنّكِ منعتني من مواصلة الكلام، وقلتِ:

- اصمت...

ثمّ انحنيتِ لكي تقبّليني من شفتيّ. مستحيل. ألستُ أحلم؟ هل يمكن لشيء بهذه الحساسية أن يحدث لي مرّة أخرى؟

أردتُ أن أتكلّم من جديد:

- أليس، لا يزال هناك وقتٌ للتراجع، بسرعة، لأنّه فيما بعد سوف يفوت الأوان وسوف أحبّكِ بشدّة، وأنتِ لا تعرفينني، فأنا أصبح صعب المراس جدّاً، في هذه الحالات...

ولكن هذه المرّة، لسانُك هو الذي قاطعني وكانت جميع آلات الكمان في أجمل أفلام الحبّ تُطلقُ صريراً بائساً وتافهاً أمام السيمفونية التي دوّت في رأسي.

وإذا كنتم تجدونني سخيفاً، أقول: تبّاً لكم.

31

الحبيب المطلّق

اليوم، أنا أتحاشى المرور من ساحة دوفين، إلّا حينما أكون محطّماً جدّاً إلى درجة لا أستطيع معها مقاومة الرغبة في ذلك، كما هي حالي هذا المساء على سبيل المثال، حيث أجلس على المقعد الذي كنّا نتقاسم الجلوس عليه، بمازوشية مَحضَة. **لو بون نوف** «الجسر الجديد» مُضاءً بالقوارب. كدنا نكون عاشقَي جسر **بون نوف**. أشعر بالبرد وأنتظركِ. لقد مضت ستّة أشهر منذ قبلتنا الأولى في هذا المكان، ولكن دائماً لديّ موعدٌ معكِ هنا. لم أكن لأفكّر في حياتي أنّني قد أصبِحُ على هذه الحالة. لا بدّ أنّ في ذلك نوعاً من العقاب، لا بدّ أنني أكفّر عن ذنبٍ ما، هذه هي الحقيقة، وإلّا لا أرى سبباً لأن تحلّ عليّ محن ومآسٍ كهذه. أجهش بالبكاء حينما أستيقظ وأئنّ حينما أنام، وبين الحالتين، أشعر بالشفقة على نفسي. أردتُ أن أكون مثل لاكلو ووجدتُ نفسي أشبه

موسيه(*). الحبّ حالة لا يمكن فهمها. حينما نراه عند الآخرين لا يمكننا أن نفهمه، فما بالك عندما تقع بنفسكَ فيه. في سنّ العشرين، كنتُ لا أزال قادراً على التحكّم بمشاعري ولكن اليوم لم أعُد قادراً على أن أقرّر أيّ شيء. أكثر ما يؤلمني هو أن أرى إلى أيّ درجة حلّ حبّي لأليس مكان حبّي لآن، كما لو أنّ الحكايتين كانتا قناتين متّصلتين. لقد هالني أن أكون على هذه الدرجة الدنيا من التردّد. لن تكون هناك مسرحية هزلية ولا معضلة بين «الزوجة الشرعية» والعشيقة، بكلّ بساطة تحلّ امرأة محلّ أخرى، بكلّ لطف، ومن دون إثارة فضيحة، كما لو أنّ أحداً يدخل إلى دماغي وهو يسير على أطراف أصابع قدميه. ألا يمكننا أنّ نحبّ شخصاً من دون أن يكون ذلك على حساب شخصٍ آخر؟ لا شكّ أنّ هذه هي جريمتي التي أدفع الآن ثمنها... نعم، هذا فعلاً أمرٌ غريب، أنا الآن في ساحة دوفين، ومع ذلك أفكّر فيكِ أنتِ يا آن، يا زوجتي السابقة...

(*) لاكلو (1741-1803) روائي فرنسي اشتُهر برواية **العلاقات الخطرة** (*Les liaisons dangereuses*)، وفيها الكثير من الإباحية والمجون، ويلعب فيها الفيكونت دو فالمون دور الشخصية الرئيسة الذي يتباهى بعلاقاته الحميمة. أما موسيه (1810-1857) فهو شاعر ومسرحي وروائي فرنسي تميّز بشاعريته وإفراطه في الرومانسية، وقد أحب الكاتبة جورج صاند حباً يفوق الوصف، وتعذّب بسبب هذا الحب إلى أقصى حدّ ممكن، وربما كانت السبب في موته المبكر لأنها خانته مع رجل آخر. -المترجم-

ربّما، يا آن، ربّما ذات يوم، بعد فترة من الزمن، بعد فترة طويلة من الزمن، سوف نتقابل في مكانٍ مضاء؛ والناس من حولنا، وسط أشجارٍ، وتحت أشعة الشمس، وسوف تزقزق العصافير مثلما فعلت في يوم زواجنا، ووسط الهرج والمرج، سوف نتعرّف بعضنا على بعض ونفكّر بحنينٍ في الزمن الماضي، في الزمن الذي كنّا فيه في العشرين من العمر، زمن آمالنا الأولى، زمن الإحباطات الكبيرة، الزمن الذي حلمنا فيه، الزمن الذي عانقنا فيه **السماء**، قبل أن نسقط على رؤوسنا، لأنّ الزمن، يا آن، ذلك الزمن يخصّنا ولا يمكن لأحدٍ أن يسرقه منّا أبداً.

32

لا أدري

كان هناك الكثير من المواعيد الغرامية السريّة في ساحة دوفين، والكثير من سهرات العشاء في مطعم بول أو مطعم ديلفينو، وكذلك ساعات لا تُعدّ ولا تُحصى من الوقت الذي نسترقه في فترات ما بعد الظهيرة ونقضيه معاً في فندق هنري الرابع. ولكثرة نزولنا في الفندق، كان موظّف الاستقبال يعرفنا بحيث يوفّر علينا ابتسامته المتواطئة والسؤال المحتوم: «يا جماعة، أليست معكم أمتعة؟» لأنّ غرفتنا كانت محجوزة لمدّة شهر. الغرفة رقم 32. كانت رائحة الحبّ تفوح منها حينما كنّا نغادرها.

لم يكن بوسعي أن أمنع نفسي من أن أسألكِ:

- تبّاً لكِ، يا أليس، أحبّكِ من أخمص قدميكِ حتى قمّة رأسكِ، إلى أين سنمضي بهذه الطريقة؟

- لا أدري.

- هل تعتقدين أنّكِ ستهجرين أنطوان؟
- لا أدري.
- هل تريدين أن نعيش معاً؟
- لا أدري.
- هل تفضّلين أن نبقى عشيقاً وعشيقة؟
- لا أدري.
- ولكن ما الذي سيحلّ بنا، اللعنة؟
- لا أدري.
- لماذا تقولين دائماً «لا أدري»؟
- لا أدري.

كنتُ في غاية العقلانية. كانت عبارة «لا أدري» جملة سوف أسمعها غالباً، وكنتُ أشعر بأنّه من الأفضل لي أن أعتاد على سماعها.

ومع ذلك، كان يحدث لي أحياناً أن أفقد برودة أعصابي تماماً:

- اتركيه! **اتركيه!**
- **توقّف! توقّف عن مطالبتي بذلك!**
- انفصلي عن زوجكِ مثلما انفصلتُ أنا عن زوجتي، **اللعنة!**
- لن يحدث هذا ولا بأيّ طريقة من الطرق. أنت تُخيفني

كثيراً، لقد سبق أن قلتُ لك ذلك. حبّنا جميل لأنّه مستحيل، وأنت تعرف ذلك جيّداً. في اليوم الذي أُصبح فيه في متناول يدكَ، لن تكون أكثر عشقاً لي.

- غير صحيح! غير صحيح! غير صحيح بالمرّة!

ولكن في قرارة نفسي، كنتُ أخشى أن يكون كلامها صحيحاً. كان الصمّ والبكم يتحاورون بطريقة أفضل منّا، أليس وأنا.

33

استحالة التخلّص
من حالة التبلّر النفسي(*)

سيكون من الضروري أن أروي لكم كيف متُّ. هل تتذكّرون فيلم **ثائر بلا قضية** لجيمس دين؟ في هذا الفيلم، هناك عصابة من الشباب المتهوّرين يستمتع أفرادها بمرح بالاندفاع بالسيارة نحو الأمام ومباشرة نحو الهاوية. كانوا يسمون هذه المغامرة «Chicken run»، أي «جري الدجاج» أو «جري الجبناء». تشتمل لعبتهم هذه على كبح السيارة في آخر لحظة ممكنة. وآخر مَن يكبح السيارة يكون الأكثر رجولة من بين أفراد المجموعة. لنقل إنّ حجم رجولته يتناسب مع المدّة الزمنية التي سيتركها تمضي قبل أن يكبح السيارة. وبطبيعة

(*) التبلّر النفسي: حالة نفسية تُصيب العاشق في بداية عشقه، بحيث يقوم بربط كلّ الأحداث، مهما كانت تافهة، بموضوع هذا العشق. -المترجم-

الحال، ينهي أحد الأغبياء جريه في قاع الهاوية داخل سيارة شيفروليه وقد تحوّلت إلى كتلة مضغوطة كالأشكال التي ينحتها النحات سيزار. حسناً، كنّا، أليس وأنا، كلّما تقدّمنا في مغامرتنا، تبيّن لنا أنّنا مثل أولئك المتمرّدين الذين لا قضية لهم. كنّا نسارع الخطى نحو هاوية، وقدمنا على دوّاسة المكابح. لم أكُن أعلم بعد بأنني كنتُ أنا الغبي المتهوّر الذي سوف يدوس على المكابح في وقتٍ متأخّرٍ جدّاً.

حينما يبدأ المرء حياةً ثانية، تكون القاعدة الأساسية هي ألّا يقع في الحب. نلتقي سرّاً في سبيل المتعة والهروب والإثارة والرعشة. نعتقد أننا نقوم بعملٍ بطولي لقاء ثمنٍ زهيد. ولكن ليست هناك أبداً مشاعر في ذلك! لا يجب الخلط بين كلّ الأمور. وإلّا سينتهي بنا الأمر بأن نخلط بين المتعة والحبّ، وربّما سيكون من الصعب علينا أن نميّز بينهما.

وإذا كنّا، أليس وأنا، قد وقعنا في هذا الفخّ، فذلك لسببٍ بسيط وهو أنّ ممارسة الجنس تكون أكثر متعة ولذّة بكثير حينما نكون عاشقين. فهذا الأمر يمنح النساء الشعور بأنّ المداعبات الجنسية تدوم لوقتٍ أطول، ويمنح الرجال الشعور بأنّها تمرّ بسرعة أكثر. وهذا التناقض هو الذي جعَلَنا نتُوه في قاع الهاوية. كانت لنا أمزجة ورغبات باذخة. لقد

مثّلنا كوميديا الرومانسية، فقط لكي نستمتع ونستلذّ أكثر. وانتهى بنا المطاف بأن صدّقنا تلك التمثيلية. ليس هناك ما هو أكثر فاعلية من **منهج كويه**(*) في الحبّ: ويا لها من خسارة أنّ هذا المنهج لا يعمل سوى في اتجاهٍ واحد. ما إن يُصاب المرء بحالة التبلّر النفسي، ينقضي الأمر ولا يعود بوسعه التراجع إلى الوراء. يعتقد المرء أنّه يلعب، وفي الحقيقة هذا صحيح ولكنّه يلعب بالنار. إذ يكون المرء قد سقط في فراغ الهاوية، مثل شخصيات الرسوم المتحرّكة التي تنظر إلى المُشاهد ومن ثمّ إلى الفراغ من تحت أقدامها، ثمّ تنظر من جديد إلى المُشاهد، قبل أن تسقط نهائياً «That's all folks!».

أتذكّر عندما انفصلنا، آن وأنا، في كلّ الحفلات التي كنتُ أذهب إليها، لم أكن أصادف سوى أناسٍ يسألونني بطريقة زائفة ومصطنَعَة عن آن، وعمّا حلّ بها، ولماذا ليست موجودة معي في الحفلة، وكيف حال آن في هذه الفترة؟ كنتُ أُجيب عن أسئلتهم، بطريقة انتقائية:

- إنّها تعمل إلى وقتٍ متأخّرٍ في هذه الفترة.

- آه حقّاً؟ هي ليست هنا؟ كنتُ أبحث عنها فقط، لديّ موعد مع زوجتي.

(*) منهج كويه: هو منهج مؤسّس على مبدأ الإيحاء الذاتي والتنويم المغناطيسي الذاتي، أسّسه الطبيب النفساني والصيدلاني الفرنسي إيميل كويه. -المترجم-

- بيني وبينك، لقد أحسنت صنعاً بأن لم تأتِ إلى هذه السهرة اللعينة: كان عليّ أن أصغي إليها وأعمل بنصيحتها. لديها حاسّة سادسة لكشف حقيقة الحفلات الفاشلة، آه، عفواً، أنت من تقوم باستقبال...

ثمّ أجبتُ بالإجابات الآتية:

- آن؟ نحن الآن نقوم بإجراءات الطلاق! ها ها ها! أنا أمزح.

- إنّها حقّاً تعمل كثيراً في هذه الفترة.

- كلّ شيء على ما يُرام: لدي إجازة حتى منتصف الليل.

- لقد غادرت في مهمّة عمل مع فريق كرة القدم الكونغولي.

- آن؟ آن ماذا؟ مارونييه؟ يا لها من مصادفة، إنّها تحمل لقبي ذاته!

- آن في المستشفى... لقد وقع حادثٌ فظيع... بين صرختَي ألمٍ فظيعتين، توسّلت إليّ أن أبقى معها، ولكنني لم أشأ أن أفوّت على نفسي هذه السهرة الظريفة والجميلة. بيضُ السلمون هذا فاخرٌ، ألا تعتقد ذلك مثلي؟

- من جهة أخرى، بسبب ما تعمله، سوف أصبح عمّا قريب محشوّاً بالمال.

- الزواج مؤسسة لم تصل إلى صيغتها النهائية بعد.

- أين أليس؟ هل تعرفون أليس؟ ألن تُقابلوا أليس؟ هل تعتقدون أنّ أليس سوف تأتي إلى السهرة؟

في المقابل، كلّما كنتُ أسمع كلمة «أليس» وهي تُلفَظ في مكانٍ ما، كانت تقع عليّ مثل لكمة على وجهي.

- أصدقائي الأعزاء، من فضلكم، هل يمكنكم ألّا تلفظوا هذا الاسم بحضوري مرّة أخرى؟

شكراً لكم سلفاً،

أنا.

الآخرون هم الفردوس، ولكن لا ينبغي أن يُساء استخدام هذا المفهوم. لقد سمعتُ المزيد من النمائم عن آن وعنّي. بالطبع، وضعتُ إشارة الضرب على تلك النمائم التي كانت تسري بحقّي: لطالما كانت النمائم تسري بين الناس قبل أن تصبح حقيقية. لم أكن قط ذاك الرجل المغفّل الذي يُظهر الغيرة الاجتماعية والسطحية التي يتّصف بها المولعون بالسهر الليلي، ولكن هنا، في هذه السهرة، كاد التهجّم على آن يثير اشمئزازي. بالنسبة إليّ، إذا كنتُ أخرج من البيت ليلاً، فذلك لكي أبطّئ من إيقاع حياتي. لأنني لم أكن أحتمل أن تتوقّف الحياة عند الساعة الثامنة مساءً. كنتُ أريد أن أبعثر ساعات حياتي في وقتٍ مبكّر. ولكن هذه المرّة، تجاوَزَت الأمور الحدّ أكثر من اللازم. ربّما لن أخرج مرّة أخرى أبداً من بيتي. لقد تبيّن لي أنني كنتُ أحقد على كلّ أولئك الناس

الذين كانوا يتطفّلون على حزني وشقائي. أنا أيضاً كنتُ مثلهم، كنتُ حثالة وعاراً. ولكن كان يجب عليّ أن أكتفي بهذا الحدّ: لم يعودوا يثيرون ضحكي. هذه المرّة، كان عليّ أن أتمسّك بفرصتي ونصيبي قدر المستطاع. ربّما كان عليهم الاستغناء عنّي. استقلتُ من المجلّات التي كنت أكتب فيها عن القضايا الاجتماعية.

وداعاً أصدقائي الزائفين والسيئين في باريس بأكملها، لن أشتاق إليكم. واصلوا من دوني تفسّخكم البطيء، أنا لا ألومكم، بل على العكس، أنا أشفقُ عليكم. ها هي المأساة الكبرى لمجتمعنا: حتى الأثرياء لم يعودوا يثيرون الرغبة. إنّهم بدينون وقبيحون وسوقيون، ونساءهم أَجرِيْنَ عمليات شدّ وتجميل، هم يذهبون إلى السجن، وأطفالهم يتعاطون المخدّرات، لديهم أذواق الريفيين، ويظهرون في مجلة **غالا**.

أثرياء اليوم نسوا أنّ المال وسيلة وليس هدفاً. لم يعودوا يعرفون ماذا يفعلون به. على الأقلّ، حينما يكون المرء فقيراً، يمكنه أن يقول في نفسه إنّ المال سوف يحلّ كلّ مشاكله. لكن حينما يكون ثريّاً، لن يستطيع أن يقول لنفسه إنّ كلّ شيء سيسير على ما يُرام إذا ما حصل على منزل جديد في جنوب فرنسا، أو سيارة رياضية أخرى، أو زوج أحذية بقيمة اثني عشر ألف فرنك أو عارضة أزياء إضافية.

حينما يكون المرء غنيّاً، لا تعود لديه أعذار. ولهذا

السبب جميع أصحاب المليارات يكونون تحت تأثير عقار بروزاك: لأنّه لا يعود بوسعهم أن يجعلوا أحداً يحلم، ولا حتى بوسعهم أن يجعلوا أنفسهم يحلمون.

كانت الكتابة عن الليل حلقة مُفرَغَة أنا أسيرها. كنتُ أسهر وأضيع في هذه الأمكنة الليلية فقط لأكتب عن عالمها. لقد قُضيَ الأمر، لنواجه من الآن فصاعداً النهار. دعونا نرى، أيّة مقالاتٍ يمكن لطفليّ عاطل من العمل أن يُجيد كتابتها في الصحف؟ تخيّلوا الكونت دراكولا في وضح النهار: ما هي المهنة التي يمكنه أن يمارسها؟ إلى ماذا يتحوّل مصاصو الدماء؟

وهكذا أصبحتُ ناقداً أدبياً.

34

نظرية العود الأبدي(*)

حينما أخبرتُ والديّ (المنفصلين منذ عام 1972) بانفصالي عن زوجتي، حاولا إقناعي بالعدول عن قراري. سألاني: «هل أنت متأكّد؟» «ألا يمكنكَ العودة عن قرارك؟» «فكّر جيّداً في الأمر...». كان التحليل النفسي قد أثّر كثيراً في أعوامهما الستّين؛ وهذا ما يُفسّر من دون شكّ سبب اعتقاد والديّ أنّ الأمر برمّته نتيجة خطأهما. إنّهما أكثر قلقاً منّي بكثير: فجأةً، لم أعُد حتى أذكر اسم أليس أمامهما. كارثة على حدّ سواء، وهذا يكفي. شرحتُ لهما بهدوء أنّ الحبّ يدوم ثلاث سنوات. احتجّ كلٌّ منهما على رأيي بطريقته الخاصّة، ولكن لم يكن بوسعهما أن يُقنِعاني. فحبّهما لم يكن

(*) نظرية العود الأبدي: هي نظرية وضعها الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه وتقوم على فكرة أنّ كلَّ ما هناك سوف يعود مرّةً أخرى، وأنّ ما حدث من قبل وما يحدث الآن سوف يحدث مرّةً أخرى أيضاً، بالطريقة نفسها في كلِّ مرّةٍ وإلى الأبد. -المترجم-

قد استمرّ أكثر من هذه المدّة. ذُهلتُ لإحساسي بأنني قد جعلتهما يعيشان قصّتهما من جديد من خلال قصّتي أنا. لا أستطيع أن أصدّق بأنّ والديّ قد تأمّلا كثيراً وفكّرا وصدّقا في النهاية بأنني سوف أكون مختلفاً عنهما.

نحن نعيش على الأرض لكي نعيش الأحداث نفسها التي عاشها آباؤنا، في السياق نفسه ومثلما ارتكبوا هم أيضاً الأخطاء نفسها التي ارتكبها آباؤهم وهكذا دواليك. ولكن هذا ليس بالأمر الخطير. ما هو أسوأ من ذلك بكثير هو عندما يقوم المرء، بذاته، بالحماقات نفسها على نحوٍ متواصل. والحال أنّ هذه هي حالتي.

أنا أسقط مرّة أخرى في المأزق نفسه، كلّ ثلاث سنوات. أعود وأعيش من دون توقّف في الدوّامة نفسها التي سبق لي أن عشتها. حياتي تتكرّر. لا بدّ أنني مبرمج على نظام التكرار والإعادة، مثل قرصٍ مضغوطٍ عندما نضغط على زرّ «إعادة». (أحبّ كثيراً أن أقارن نفسي بالآلات، لأنّ الآلات سهلة التصليح). هذه ليست كوميديا التكرار، وإنّما كابوسٌ حقيقي: تخيّلوا سكّة حديد مرعبة في مدينة ملاهي مع دواليب دوران عملاقة مثيرة للغثيان ومزالق مثيرة للدوخة. دعوا أنفسكم تدورون دورة واحدة وهذا يكفيكم لتكتشفوا هذا الكابوس. سوف تنزلون من اللعبة الدائرية وأنتم تصرخون في

أنفسكم: «أوه لالا! لقد كدتُ أتقيّأ غزل البنات الذي كنتُ قد تناولته ثلاث مرّات، لا أريد أن أكرّر هذا مرّة أخرى!». أمّا أنا، فأقوم بتكرار الأمر باستمرار. أنا زبون دائم في ملاهي توبوغان أنفيرنال، وملاهي سبيس ماونتن أصبحت بيتي.

وأخيراً فهمتُ مغزى جملة ألبير كامو: «لا بدّ أن يتخيّل المرء أنّ سيزيف سعيدٌ». لقد أراد أن يقول إنّ المرء يقضي كلّ حياته في تكرار الحماقات نفسها ولكن ربّما تكون هذه هي السعادة. ربّما عليّ أن أتشبّث بهذه الفكرة. أن أحبّ محنتي لأنّها مليئة بالتقلّبات والمفاجآت.

راودني حلمٌ. تراءى لي أنني أدفع صخرتي أمامي في جادة سان جيرمان وأُركنها بجانب السيارات المركونة إلى جانب الرصيف، فيطلب منّي رجل شرطة أن أسير بها وإلّا سيُسطّر مخالفة في صخرتي، فاضطررتُ لأن أغيّر مكانها وفجأة أفلتت منّي وبدأت في النزول إلى شارع سان بينوا وهي تتدحرج على نحوٍ متسارع. لقد فقدتُ السيطرة عليها تماماً: يجب القول إنّ كتلة الصوان تلك كانت تزن ستّة أطنان. حينما وصلت إلى زاوية شارع جاكوب، اصطدمت الصخرة بسيارة رياضية صغيرة. آي! لقد سحقت غطاء المحرّك والباب والرجل الشاب الذي كان يقودها. وجب عليّ أن أتبادل المعلومات المتعلّقة بالتأمين على المركبة مع أرملته المثيرة

التي لم تكفّ عن البكاء. شددتُ على كتفها. في خانة «رقم المركبة»، دوّنت: «س. ي. ز. ي. ف» (طراز مُستَعمَل). ومن ثمّ صعدتُ من جديد شارع بونابرت وأنا أدفع صخرتي، وأنا أبذل مجهوداً وأتعرّق دماً، سنتيمتراً بسنتيمتر، لأتركها في النهاية في مرأب سان جيرمان دي بري. غداً، سيبدأ السيرك نفسه. ولا بدّ أن أتخيّل نفسي سعيداً.

35

رقيقٌ هو الليل

منذ أن قرّرتُ أن أتغلّب على أرق الليل، أخرج للسهر كلّ مساء؛ إذ كان عليّ أن أخرج تماماً من حالتي هذه. وتبدأ المسألة باكتشافي أنني وحيد. إنّ العثور على رجل أعزب في عمري، في باريس، في عام 1995، أمرٌ صعبٌ جدّاً يوازي صعوبة العثور على رجلٍ مشرّدٍ في فندق بالاس أوتيل في منتجع غشتاد السويسري. لم ينتبه الناس إلى أنني كنتُ أموت حزناً، لأنني كنتُ على الدوام نحيلاً، حتى حينما كنتُ في أحسن حال. كنتُ أتنزّه قليلاً في كلّ مكان وأنا أحمل اليأس على كتفيّ كحملٍ ثقيل. في ذلك المساء، أخبرتني أليس، مرّة أخرى، بأنّها لم تعُد تستطيع الاستمرار في الكذب على زوجها وبأنّها قد قرّرت قطع علاقتها بي. كانت عموماً تُخبرني بقرار قطع علاقتها بي مساء الجمعة لكي لا تشعر بالذنب خلال عطلة نهاية الأسبوع، ومن ثمّ تُعاود الاتصال بي بعد ظهيرة يوم الاثنين. بعد أن أخبرتني بقرارها، اتّصلتُ هاتفياً

بجان-جورج لكي أسأله إن كان يريد أن أجلب معي نبيذاً على العشاء هذا المساء، أو شيئاً ما للتحلية.

قرّرتُ أن أخون أليس مع صديقتها المقرّبة. لم توافق جولي على مرافقتي إلى العشاء في منزل جان-جورج: أخبرتها بأنني سأكون في حالة سيئة للغاية وقد لاحظتُ أنّ لا امرأة تقاوم حينما يُخبِرها عشيق صديقتها المقرّبة بأنّه في حالة سيئة للغاية. لا بدّ أن هذا يُثير فيهنّ الإحساس بالواجب، فتقوم الواحدة منهنّ بدور الممرّضة المتفانية والراهبة في رهبانية أخوات الفقراء الصغيرات(*).

جولي مثيرة للغاية، وهذه هي مشكلتها الرئيسة. كانت تشتكي باستمرار من أنّ الصبيان لا يقعون في حبّها، بل إنّ رغبتهم الأولى هي التحرّش بها. صحيحٌ أنّهم لا يحترمونها كثيراً، ولكن هذا أيضاً من صنعها - إذ ليس هناك أيّ قانون يُلزمها بأن ترتدي على الدوام قمصاناً صغيرة القياس تتوقّف عند أعلى سرّتها المثقوبة والمعلّقة فيها حلقة ذهبية.

- لو لم تستسلمي لهم بسهولة، لكانوا قد وقعوا في حبّك. الرجال مثل الفلفل، يجب نقعهم وتحويلهم إلى مخلّل.

(*) أخوات الفقراء الصغيرات: رهبانية دينية كاثوليكية تأسّست في فرنسا وتعتني بشؤون المسنّين الفقراء. -المترجم-

- تريد أن تقول إنّك تنصحني بأن أفعل بالرجال ما تفعله أليس بك؟

لم تكن جولي هذه بلهاء تماماً.

بعد قليلٍ من التروّي، أجبتها:

- أوه... في الواقع، كلا. كوني لطيفة مع الصبيان، من الأفضل أن ترحميهم، إنّهم مخلوقات ضعيفة.

أحسنَ جان-جورج تدبير الأمور. كانت أرواحٌ هادئة ونقية تتناقش في بيته في وئامٍ وانسجام. كانت النزعة العدوانية منبوذة ومنفية عن مسكنه الذي يعجّ دائماً بالفنانين المشهورين. كان يستقبل ممثّلين، وكتّاب سيناريو، ومصمّمي أزياء، ورسّامين، بل وحتى فنانين مبتدئين. لقد لاحظتُ أنّه كلّما كان الناس أكثر موهبة، كانوا أكثر لطفاً. هذا المبدأ مطلق. جلسنا، مع جولي، على أريكة لكي نتناول قطعاً من الكنابيه. سألتني:

- هل تعرف جان-جورج هذا منذ زمنٍ طويل؟

- منذ الأزل. لا ينبغي أن نعتمد على المظاهر: هذا المساء لم يأتِ تقريباً حتى ليتكلّم معي، ومع ذلك هو صديقي المفضّل، أعني أنّه الشخص الوحيد من جنسي الذي أتحمّل رفقته.

همسَت وهي تَعدل جلستها:

- إذاً، يا من تعرض عليّ مفاتنك الجنسية، هلّا أخبرتني ما هي مشكلتكَ؟

- لقد هجرتني أليس، وزوجتي أيضاً، وماتت جدّتي. لم أكن أعلم بأنّ المرء قد يجد نفسه وحيداً إلى هذه الدرجة.

وأنا أرثي لحالي، تقرّبتُ منها على الأريكة. إنّ إغراء امرأة في حفلة يتطلّب بشكلٍ أساسي تقليص المسافات معها. يجب النجاح في كسب الأرض، سنتيمتراً بسنتيمتر، دون أن تتمّ ملاحظة ذلك على نحوٍ فاقع. إذا رأيتَ فتاةً أعجبتكَ، يجب عليكَ التقرّب منها (على مسافة مترين). إذا ظلّت تعجبكَ وهي على هذه المسافة منك، تبدأ بالحديث إليها (وأنت على مسافة مترٍ واحد منها). وإذا ما ابتسمت لترّهاتكَ، قُمْ بدعوتها إلى الرقص أو إلى شرب كأسٍ من المشروب (وأنت على بعدِ 50 سنتيمتراً منها). ومن ثمّ اجلس بجانبها (وأنت على بعدِ 30 سنتيمتراً منها). ما إن تبدأ عيناها باللمعان، سيكون عليك أن ترتّب بعناية ولطف خصلة من شعرها خلف أذنها (وأنت على بعد 15 سنتيمتراً منها). وإذا ما سمحتْ لك بأن تمشّط شعرها بأصابعك، تحدّث إليها وأنت تتقرّب منها أكثر بقليل (وأنت على مسافة 8 سنتيمترات منها). وإذا ما تنفّست بقوّة أكبر، ألصق شفتيك على شفتيها (وأنت على مسافة صفر سنتيمتر منها). لا شكّ أنّ هدف كلّ هذه الاستراتيجية المتّبعة هو الحصول على مسافة سلبية تعني

ولوج جسمٍ غريب إلى داخل هذه المرأة (بطول حوالي 12 سنتيمتراً كمعدّل وطني).

استأنفتُ حديثي وأنا أقلّص المسافة التي تفصلني عمّن لا يمكن إصلاحها:

- أنا حزينٌ وتعيسٌ مثل الحجر. كلا، أكثر من الحجر، لأنْ لا أحد يهجر حجرة، ولأنّ الحجارة لا تموت.

- نعم، هذا قاسٍ ومؤلم... أنت مذعور.

بدأتُ أتساءل في نفسي عمّا تجده أليس في هذه الفتاة الغبية والسخيفة لتتّخذها صديقة. لا بدّ أنّهم أعطوني معلومات خاطئة. لا يمكن لهذه الفتاة أن تكون صديقتها المقرّبة. ومع ذلك واصلتُ حديثي معها.

- في النهاية... ليس هناك كاتبٌ سعيد... لم يُصبني إلّا ما أستحقّه.

- آه حقّاً؟ لماذا؟ هل تؤلّف كتباً؟ كنتُ أعتقدُ أنّك تنظّم حفلات؟

قلتُ وأنا أتمعّن في أظافري:

- أوه... نعم، هذا صحيح، ولكنني نشرتُ، على ما أعتقد، على مدار السنة، بعض النصوص هنا وهناك وبتمهّل وبطء. سفرٌ إلى آخر أيّ شيء، هل سمعتِ شيئاً عن هذه الرواية؟

- أوه...

- حسناً، أنا كاتبُ هذه الرواية. كما أنني كاتب رواية **كائنٌ لا تُحتَمَل تفاهته**، وأحضّر الآن رواية **آلام الشاب مارونيبه**...[*].

- متى موعد حفلتك القادمة؟ سوف ترسل لي دعوة لحضورها، اتّفقنا؟

بعض الفتيات لهنّ نظرة وحشية بحيث ينتابك فجأة شعورٌ بأنّك قطار ضواحي. ولكن يجب أن أُرغِم نفسي، فإذا ما خرجتُ معها فسوف تموت أليس، ولذلك يجب إبداء الحرص مهما كلّف الثمن.

- جولي، إنّ الفائدة الرئيسة للطلاق هو أنّه يسمح للمرء بأن يغسل يديه من دون أن يعلق الصابون بالإصبع...

- حقّاً؟ لماذا؟

- ببساطة، بسبب خاتم الزواج.

- آه... مفهوم... أنت رجلٌ مضحك.

- كلا. أقصد، نعم، هناك الكثير. ولكن ليس بينهم من هو جادّ.

(*) العناوين الثلاثة المذكورة هنا للروايات هي تحريف لعناوين الأعمال الروائية التالية: رواية **سفر إلى آخر الليل** للروائي الفرنسي لويس فرديناند سيلين، ورواية **كائن لا تُحتَمَل خفّته** للروائي الفرنسي من أصول تشيكية ميلان كونديرا، ورواية **آلام الشاب فرتر** للروائي الألماني يوهان فولفغانغ فون غوته. -المترجم-

- نعم، مثلي أنا.

- كلا، أنت مغرمٌ بأليس.

- نعم، نعم، ولكن الأمر أكثر تعقيداً من غرامي بها. أعتقد أنّ مشكلتي هي أنّني أقعُ في الحبّ ولكنني لا أستطيع الحفاظ عليه.

في تلك اللحظة المحدّدة، أخذتُ مكاني على مسافة ملليمترية من فمها «المكتنز والمرسوم بأحمر الشفاء». تساءلتُ في نفسي إن لم يكن هناك القليل من الكولاجين في شفتها العليا. كنتُ على وشك أن أختم المشهد حينما أدارت وجهها وقرّبت لي خدّها. فشلت الخطّة.

كفى. كفى أكاذيب. نهضتُ من مكاني وتركتها على أريكتها. مخلوقة مسكينة، لقد فهمتُ الآن لماذا يُعاملها الرجال مثل شفرة حلاقة «بيك». على أيّ حال، حتى لو أنني حاولتُ أن أُغيظكِ بهذه الفتاة، يا أليس، لن تهتمي بالأمر أبداً (على العكس من ذلك: ربّما هذا سيثيركِ). أنا لا أحبّ سواكِ، عليكِ أن تعترفي بذلك في يومٍ ما، حتى وإن كنتِ لا ترغبين في تغيير أيّ شيءٍ في حياتكِ. هناك في مدينتكِ رجل يحبّكِ ويتألّم، سواءٌ شئتِ ذلك أم أبيتِ. إنّ تكرار هذا الكلام لكِ بات طريقتي المُثلى لكي أجعلكِ تستسلمين. سوف أكون عاشقكِ الصبور. سوف أتحمّل

العذاب بهدوء، وأسعى إلى إغرائك باستمرار. سمّني تانتالوس(*).

بعد مرور عدّة ساعات، بينما كنتُ أتصفّح طبعة قديمة من رواية رقيقٌ هو الليل(**) على بلاط المطبخ، كانت جولي تتغازل مع أبٍ وابنه، متسبّبة بشجارٍ عائليّ جميل. لقد قابلتُ مرّة أخرى امرأة يائسة في عطلة نهاية الأسبوع تلك. لم نخرج من بيت جان-جورج خلال ثلاثة أيام، ونحن نتغذّى فقط على رقائق «شيبس» ومشروب «فور روزس». ولم نستمع سوى إلى أسطوانة واحدة وهي روبر سول لفرقة البيتلز. في لحظة ما، بدا لي أنّ جوليان قد ألّف أغنية على البيانو. أمّا أنا، فلم أكن أنهض من مكاني إلّا كلّ ثلاث ساعات مرّة واحدة وذلك فقط لكي أشرب، لأنّ أفضل طريقة لعدم الندم على شيءٍ ما هو نسيانه، كما يُقال.

(*) تانتالوس: في الميثولوجيا اليونانية، هو ابن زيوس وقد عوقِبَ بأن يظلّ للأبد في تارتاروس مقيداً والماء تحت ذقنه وغصون الفواكه فوق رأسه حيث يظلّ ظمآن جائعاً، كلما أراد أن يشرب من الماء أو يأكل من الثمار تبتعد عنه. -المترجم-

(**) رقيقٌ هو الليل: رواية للكاتب الأميركي فرنسيس سكوت فيتزجيرالد. -المترجم-

36

عمل حرّ

أجلسُ في البيت في حالة انتظار ومن شأن هذا أن يمنحني الهدوء. أملأُ أوقات فراغي الطويلة في انتظارٍ أبديّ مثل بطل رواية **سُهب التتار**(*) على أمل أن أجد فرصة تمنح لحياتي معنى. وفي ظلّ حالتي هذه، جاءني على سبيل المثال موجزٌ خاص عن دعاية إعلانية لإطلاق عطرٍ نسائي: عطر هيبنوس للساحر الأميركي ديفيد كوبرفيلد، لاس فيغاس. يُدفع لقاء هذا الإعلان مبلغاً مقداره خمسون ألف فرنك جديد (ويُدفع نصف هذا المبلغ في حال عدم قبوله). يجب إيجاد جملة قصيرة استفزازية وقوية تعبّر في آنٍ واحدٍ عن الفائدة الاستهلاكية وتحفّز بطريقة إيجابية «الباعث على استخدامه». بكلامٍ أوضح، التعبير عن أنّ هذا العطر سوف يتيح للنساء

(*) سُهب التتار: رواية للمؤلف الإيطالي دينو بوزاتي. تتمحور حبكتها حول انتظار دروجو طوال حياته لحرب عظيمة تعطيه فائدة ومعنى لحياته. -المترجم-

(الهدف) بأن يغرين الرجال (هدف الهدف) ولكن ليس لليلة واحدة فقط: وإنّما من أجل شغفٍ أبديّ ودائم، وهذا بفضل براعة مصنّع العطر ومنتجه. بعد أسبوع من العمل على هذه الفكرة، اقترحتُ هذه القائمة:

بدلاً من أن تتزوّجوا، استخدموا عطر هيبنوس لكوبرفيلد.
هيبنوس لكوبرفيلد. هو ليس عطراً، إنّه خدعة سحرية.
هيبنوس لكوبرفيلد. عطرٌ لهذا المساء، ولمساء الغد، ولكلّ المساءات الأخرى.
هيبنوس لكوبرفيلد. إنّه يخفي قصّة حبّ في قاعٍ خفيّ.
استخدموا هيبنوس ودعوا الحياة تفعل فعلها.
هيبنوس لكوبرفيلد. هذا العطر معدّل.
هيبنوس: القنينة التي تجعلك تفقد ذاكرتك.
هيبنوس لكوبرفيلد. بعد استخدامه، ستتظاهر بأنّك لم تعُد تتذكّر.

سار الاجتماع مع ممثلي شركة الإعلانات على نحوٍ سيئ للغاية. لم يكن أحدٌ راضياً عن أدائي، ولا حتى أنا نفسي. أصغيتُ إليهم، وغادرتُ باريس بعد الظهيرة إلى منتجع فيربيه للرياضات الشتوية في مقاطعة فاليه السويسرية. ومن هناك، وبعد ثلاثة أسابيع من العمل، أرسلتُ عبر الفاكس الشعار

الذي تعرفونه والذي جعل هذا المنتج، خلال سنة واحدة، يتصدّر قائمة العطور الأكثر مبيعاً في العالم.

هيبنوس لكوبرفيلد. وإلّا، الحبّ يدوم ثلاث سنوات.

37

ساخرٌ بماء الورد

أنا جالسٌ هناك، مثل كلّ مساء، في نهاية صالة المقهى نفسه، أسعى إلى إيجاد حلّ. عبثاً ردّدتُ في نفسي أنني ميّت، إذ بقيتُ في الحقيقة حيّاً أُرزَق. لمرّاتٍ عديدة كنتُ على وشك أن أموت: سحقاً تحت عجلات سيارة (ولكنني تجنّبتها في اللحظة الأخيرة)، سقوطاً من فوق عمارةٍ (ولكنني تعلّقتُ بأغصان شجرة)، مصاباً بمرضٍ فيروسي مُعدٍ (ولكنني استخدمتُ واقياً ذكرياً). يا للخسارة، كم أنا مُحبَط! ربّما كان بإمكان الموت أن يُعالجني بدرجة لا بأس بها. قبل نزولي إلى الجحيم، كان الموت يُخيفني. اليوم، ربّما ينقذني ويحرّرني. لا أستطيع حتى أن أفهم لماذا يحزن الناس إلى هذه الدرجة بسبب الموت. الموت يخبّئ لنا المفاجأة أكثر من الحياة. من الآن فصاعداً، سأنتظر يوم مماتي بفارغ الصبر. سأكون سعيداً بالرحيل عن هذا العالم ومعرفة ما هو موجود وراءه. الذين

يخافون من الموت أناسٌ غير فضوليين ولا رغبة لديهم في المعرفة.

تكمن مشكلتي في أنّكِ أنتِ الحلّ لها. إنّ الناس الأكثر سخرية والأكثر تشاؤماً هم مَنْ يقعون في الحبّ بالطريقة الأشدّ قسوةً، لأنّ هذا يناسبُ ما يعانون منه. إنّ سخريتي لم تنتظر حتى تُنفى وتُنكَر. إنّ الذين ينتقدون الحبّ هم بكلّ تأكيد أكثر مَن يحتاجون إليه: هناك في داخل كلّ فالمون(*) شخصٌ رومانسيّ ميؤوس منه لا يطلب سوى أن يُخرج الماندولين خاصّته.

وها قد تمّ الأمر وكرّر نفسه، وانغلق الفخّ، والمكيدة قائمة على قدمٍ وساق. تراودني من جديد رغبة في أن يكون لي بيتٌ كبير أستمتع بحديقته المشمسة، أو بموسيقى تساقُط المطر على سطحه في نهاية النهار، رغبةٌ في قطف باقة من البنفسج، في عزلةٍ معها، بعيداً عن المدينة لممارسة الحبّ لمرّاتٍ ومرّات، حتى أهلك فرحاً وأبكي متعةً، نغرق في المداعبات لكي نجد العزاء في كوننا معاً، ونتناول الشمّام المجمّد وجانبون بارما وفلورنسا وميلانو، إن توفّر لنا الوقت...

(*) إشارة الى الفيكونت دو فالمون الشخصية الرئيسة في رواية لاكلو بعنوان **العلاقات الخطرة** (*Les liaisons dangereuses*). -المترجم-

38

مُراسَلة (3)

الرسالة الرابعة إلى أليس:

«عزيزتي النعامة،

أفكر فيكِ طوال الوقت. أفكر فيكِ في الصباح وأنا أمشي في البرد. أتعمّد أن أسير ببطء لكي أستطيع أن أفكّر فيكِ لأطول وقتٍ ممكن. أفكر فيك في المساء عندما أفتقدك وسط الاحتفالات، حيث أثمل لكي أفكّر في أمرٍ آخر سواكِ، ولكن العكس هو ما يحدث. أفكر فيكِ عندما تحضرين أمام عينيّ، وأيضاً عندما تغيبين عنّي. أودّ أن أفعل أيّ شيء غير التفكير فيكِ لكنني أخفق في ذلك. إذا كنتِ تعرفين خدعة لأنساك، أخبريني بها.

لقد قضيت أسوأ عطلة نهاية أسبوع في حياتي. ما اشتقتُ بحياتي إلى أحدٍ مثلما أشتاق إليكِ. من دونك، حياتي تصبح قاعة انتظارٍ لا نهاية لها. هل هناك ما هو أكثر إفزاعاً من قاعة

انتظارٍ في مستشفى، بإنارة مصابيحها النيون والمشمّع المفروش على أرضيتها؟ هل من الإنسانية في شيء أن يُفعَل بي هذا؟ علاوة على ذلك، في قاعة انتظاري، أنا وحيدٌ، ليس هناك جرحى آخرون جراحهم خطيرة وينزفون دماً لكي أطمئن، ولا مجلات على طاولة منخفضة لكي أتسلّى بها، ولا جهاز توزيع البطاقات المرقّمة لتنظيم الدور لكي أعرف أنّ هناك نهاية لانتظاري. أعاني من ألمٍ شديد في البطن ولا أحد يعالجني. أن تكون عاشقاً هذا هو الأمر ببساطة: ألمٌ في البطن دواؤه الوحيد هو أنتِ.

أليس. كنتُ أجهل أنّ هذا الاسم سيأخذ كلّ هذا الحيّز في حياتي. كنتُ قد سمعتُ الكثير عن التعاسة ولم أكُن أعلم أنّها تُسمى أليس. أليس. أنا أحبّكِ. كلمتان لا تنفصلان. اسمكِ ليس أليس، وإنّما «أليس-أنا-أحبّكِ».

عاشقكِ مارك الحزين جدّاً».

كما كان متوقّعاً، اتّصلت بي أليس يوم الاثنين التالي. اعترفَت لي بأنّها كانت مولَعَة بي إلى حدّ الجنون، ووعدتني بأنّنا لن ننفصل مرّة أخرى أبداً. خلعتُ عنها ملابسها بلطف وهدوء في شقّة استَعَرتها من صديقة لي. من نافلة القول أنّ لقاءنا كان لطيفاً وممتعاً. ربّما كانت اللذّة التي حظينا بها بعد ظهيرة ذلك اليوم تُضاهي أكبر المقاييس. وبعد ذلك، وعلى

النقيض من وعدها، تركتني أليس مُنهكة، نحو الساعة التاسعة مساءً، ووجدتُ نفسي من جديد وحيداً في مواجهة الزمن والأيام.

39

الانحدار المتواصل

يجب أن أخبركُم في الحال بما يأتي: ليس من المؤكّد أنّ هذه الحكاية سوف تنتهي «نهاية سعيدة». تُعدّ هذه الأسابيع الأخيرة من بين الذكريات الأكثر حزناً وروعةً في حياتي، ولا شيء يُجيز لي التفكير في أنّ هذا الوضع لن يستمرّ. لقد حاولتُ عبثاً أن أُرغم القدر وأتحكّم به، فالقدر ليس عبارة عن قطعة عجينٍ حتى يمكننا أنّ نتحكّم بأشكالها كيفما شئنا.

لقد حلّت نهاية العالم في الأسبوع الماضي. لقد اتّصلَت بي أليس هاتفياً لكي تُخبرني بأنّها سوف تذهب لقضاء العطلة مع أنطوان في محاولةٍ لإصلاح الأمور بينهما ورأب الصَّدع في علاقتهما. هذه المرّة، انتهى الأمر فعلاً. أغلقنا سماعة الهاتف حتى من دون أن نودّع بعضنا. حبيبتي غدت هيروشيما. انظروا إلى الأضرار التي قد تتسبّب بها

العاطفة: الأمر استدعى اقتباساً من مارغريت دوراس(*).

أنظرُ إلى ذبابة ترتطم بنافذة غرفتي وأفكّر أنّ حالها تشبه حالي: هناك حاجزٌ زجاجي بينها وبين الواقع.

الحياة المزدوجة هي رفاهية المُصابين بالانفصام في الشخصية. كانت أليس تحصل على كلّ شيء من دون التخلّي عن أيّ شيء: فقد كانت تحصل على الحبّ الممنوع معي وتحظى في الوقت ذاته بالراحة والسلام والوئام مع زوجها. لماذا تكون للمرء حياةٌ واحدة إذا كان بوسعه أن يحظى بعدّة حيوات؟ تغيّر أليس الرجال كما تغيّر قنوات التلفاز (أتمنى أن أكون على الأقلّ محطّة «يوروسبورت»).

لقد انتهى الأمر. ل.ق.د. ا.ن.ت.هـ.ى ا.ل.أ.م.ر. لا أعتقد أنني سوف أستطيع أن أكتب الأحرف الثلاثة عشر هذه بهذه السهولة، في حين أنني غير قادرٍ على القبول بهذه العبارة. يحدُث لي أحياناً أن أعاني من نوبات من جنون العظمة وعزّة النفس، فأحاول إقناع نفسي بأنّها إن كانت لا تريدني، فلن أحبّها أنا أيضاً بعد الآن! وأتساءل: هل أليس ليست من **مستواي**؟ اللعنة على هذه الحمقاء! ولكن نوبات الكبرياء هذه لا تدوم طويلاً لأنني لا أملك المستوى المطلوب من غريزة الحفاظ على عزّة النفس.

(*) مارغريت دوراس: شاعرة وكاتبة مسرحية ومخرجة فرنسية. كتبت رواية **هيروشيما... حبيبي**. -المترجم-

أرجوكم أن تعذروني، فالكتّاب أناسٌ يُكثرون من الشكوى، وأتمنى ألّا أزعِجَكُم كثيراً بعذابي وآلامي. الكتابة هي نوعٌ من الشكوى. ليس هناك فرقٌ كبير بين رواية وشكوى إلى مديرية البريد والهاتف. لو كان بوسعي أن أفعل شيئاً آخر، لما حبستُ نفسي في بيتي لأقضي وقتي بالنّقر على أزرار الآلة الكاتبة. ولكن ليس لديّ خيارٌ آخر: لن يكون بوسعي أبداً أن أتحدّث عن أيّ شيءٍ آخر.

انظروا لتَروا ما حلّ بي... أنا أكتب الكتاب نفسه الذي يكتبه الآخرون... عشّاقٌ يتبادلون الأمكنة... يهجر الرجل امرأة من أجل امرأة أخرى لا تأتي... ما الذي أصابني؟ أين سهراتي المنحطّة؟ أحصر نفسي في المشاكل العاطفية المتعلّقة بحي سان جيرمان الباريسي... إنّها تبدو مثل السينما الفرنسية الفتية... لنتحدّث عن مشاكل الناس الذين لا مشاكلَ لديهم... ولكن هذه هي المرّة الأولى التي أشعر فيها بحاجة بدنية إلى الكتابة كهذه... فيما مضى، حينما كان أحدهم يحدّثني عن «الضرورة»، كنتُ أتظاهر بأنني قد فهمتُ المسألة، لكن في الحقيقة لم أكن أعرف أيّ شيء على الإطلاق... حتى هذا الاستنكار الذاتي هو نوعٌ من حماية أخرى... (شكراً دريو، شكراً نوريسييه...) ليس لديّ أيّ شيء آخر لكي أرويه... لا بدّ أن يخرج هذا إلى النور ذات يوم... طالما لم يكتب المرء رواية طلاقه، فكأنّه لم يكتب

شيئاً... ربّما ليس من السّخف أن يعمّم المرء حالته الخاصّة... إذا كنتُ مبتذلاً، أنا عالميّ إذاً... يجب الهروب من الأصالة ومعالجة القضايا والمسائل الخالدة... لقد تعبتُ من البقاء في الدرجة الثانية، ولذلك أنكبّ على تعلّم الإخلاص وأشعر بأنّ في قاع هذه المحنة ثمّة ما يشبه نهراً يجري وبأنني لو نجحتُ في أن أُفجّر هذا الينبوع، سوف أستطيع أن أُسدي خدمة إلى بعض الناس الذين لا بدّ أنهم سقطوا في هاوية كهذه من قبل. أودّ أن أحذّرهم وأنبّههم وأشرح لهم كلّ التفاصيل لكي لا تُصيبهم خيبة الأمل التي أصابتني. هذه مهمّة أتصدّى لها بنفسي، وهي تساعدني في أن أرى الأمور على نحوٍ أوضح. لكنّه ليس من المستحيل أن يبقى هذا النهر حبيس جوف الأرض إلى الأبد...

40

حوارٌ في قصر

لم يسبق أن رآني جان-جورج أبداً على هذه الحال. حاولَ يائساً أن يُضفي المرح على حديثنا، مثلما يمدّ المرء يده إلى غريقٍ لإنقاذه. كنّا في حانة فندقٍ كبير ولكنني لم أعُد أعرف حتى أيّ فندقٍ كان لأننا جُلنا على كلّ فنادق المدينة. سألته:

- قلْ لي، هل تعتقد أنّ الحبّ يدوم ثلاث سنوات؟

نظر إليّ بإشفاق:

- ثلاث سنوات؟ ولكن هذه مدّة طويلة؟ يا للهول، هذا فظيع! ثلاثة أيام كافية ووافية! مَنْ وضع هذه الفكرة الغبية في رأسكَ، أيّها البحّار الصغير؟

- يبدو أنّ هذه مسألة تتعلّق بالهرمونات، أقصد بالكيمياء الحيوية، ماذا... بعد مضيّ ثلاث سنوات ينتهي الحبّ ولا يعود هناك شيءٌ يمكننا أن نفعله. ألا تجد هذا أمراً محزناً؟

- كلّا يا عزيزي. الحبّ يدوم الوقت الذي ينبغي أن

يدوم خلاله، الأمر سيّان بالنسبة إليّ. ولكن إذا كنتَ تريده أن يدوم، أعتقد أنّه يجب على المرء أن يتعلّم كيف يملّ جيّداً. يجب العثور على الشخص الذي رغبنا في أن نضجر ونملّ معه. وبما أنّه لا وجود للعاطفة الأبدية، فلنبحث على الأقلّ عن مللٍ لطيف.

- نعم، ربّما تكون محقّاً... هل تعتقد أنّ هذا سيجعلني ذات يوم أركض خلف الأشباح؟

- نعم يا حلو. أنت تتناول المشكلة بطريقة معاكسة. كلّما سعينا إلى أن نكون محبوبين، شعرنا بالإحباط حينما يتوقّف هذا الأمر. ما يجب فعله هو البحث عن الملل، بذلك سوف تُفاجأُ دائماً بأنّك لم تُزعج نفسك. لا يمكن للحبّ أن يكون «مؤسسيّاً»، الملل هو ما يجب أن يكون الوضع الطبيعي - والحبّ حبّة كرزٍ على قطعة كاتو. أنت تعرف الخوف من الملل...

- ... هذا كره الذات... أنا أعرف، لقد سبقَ لك أن قلتَ لي ذلك وكرّرته مراراً... آخ... عندما أرى كلّ هؤلاء الأصدقاء الذين كلّ زوجين منهم يكرهان بعضهما بعضاً، ويملّان بعضهما من بعض، ويخونان بعضهما بعضاً، ويُصابان بالاكتئاب، ويظلّان معاً فقط ليُعطيا الديمومة لزواجهما، لا أتأسّف أبداً على الطلاق والانفصال... على الأقلّ، أنا سأحتفظ بصورة جميلة عن قصّتي.

- يا صعلوكي العزيز، أنا لا أحدّثك عن آن وإنّما عن

أليس. أنت تحلم بها في حين أنّك لا تعرفها حتى. نعم، هذا هو مرضكَ: أنت تحبّ امرأة لا تعرفها. هل تعتقد أنّك سوف تتحمّلها إن وجبَ عليك أن تعيش معها؟ ليس بالتأكيد، فما يثيركما هو عدم القدرة على أن تكونا معاً. أنا لو كنتُ في مكانكَ، لأعدتُ الاتصال بآن.

- جان-جورج؟

- ماذا، يا عزيزي الساذج؟

- لا تتفوّه بترّهات وحماقات. هل نشرب كأسين أخريين؟

- نعم، إذا كنتَ أنت من سيدفع الحساب.

- جان-جورج، هل يمكنني أن أطرح عليك سؤالاً؟

- هيا، قُلْ في الحال.

- هل تألّمت سابقاً بسبب الحبّ؟

- كلا، أنت تعرف ذلك جيّداً. لم أقع في الحبّ أبداً. وهذه هي مصيبتي الكبيرة.

- أحياناً أحسدك. أنا لم أبقَ في حياتي عاشقاً، وهذا أسوأ.

جعلني صمته أندم على طرحي لهذا السؤال عليه. غَشَت سحابة عينيه السارحتين. وأصبح صوته أكثر انخفاضاً:

- كفّ عن تبديل الأدوار، أيّها الفاسق الصغير. أنا مَنْ يحسدك، وأنت تعرف ذلك جيّداً. أنا أعاني وأتألّم منذ أن

ولدت. أنت تكتشف الآن ألماً لطالما تمنّيتُ لو أني أعرفه. فلنغيّر الموضوع، لو سمحت.

حسناً، إنّ ألمي مُعدٍ. الآن بات الحزن يخيّم على كلينا، إذاً ها نحن نتقدّم جيّداً نحو الأمام.

- هل تعتقد أنني وغدٌ ونذل؟

- كلا، كلا. أنت تتلقّى تعليمك الآن، أنت لستَ سوى هاوٍ صغير، يا عزيزي. ما زالت هناك بعض الخطوات المتقدّمة التي يجب أن تقوم بها... ومن ناحية أخرى...

- ومن ناحية أخرى ماذا؟

- ومن ناحية أخرى، أنت حقّاً نذل صغير وسأرميك في حفرة صغيرة في الحال.

أمسك بي ذاك الطائش وتدحرجنا على الأرض وقلبنا الطاولة والأكواب والأرائك ونحن نقهقه ضاحكين، في حين كان نادل الحانة يبحث في انهماكٍ محموم في دليل الهاتف عن رقم طوارئ قسم الأمراض النفسية في مستشفى سانت-آن.

41

تخمينات

إذاً، لقد حدث أمرٌ رهيب: لقد بدأتُ بالاحتفاظ بجواربي أثناء النوم. كان يجب عليّ أن أتصرّف حيال حالتي وإلّا كانت ستتدهور وسيبلغ بي الحال في وقتٍ قريب أن أبدأ بشرب بولي. كنتُ أتقلّب في سريري وأنا أفكّر في ما قاله لي جان-جورج. وماذا لو كان محقّاً في ما قاله؟ كان يجب الاتصال بآن. ففي النهاية، ما دامت أليس لا تريد أن تعود إليّ، ربّما أكون قد ارتكبتُ خطأً في طلاقي من زوجتي. لم أخسر كلّ شيء بعد وربّما يُمكنني تدارك الأمر: فالكثير من الناس يقعون في حبّ زوجاتهم أو أزواجهنّ بعد وقوع الطلاق بينهم. خذوا مثلاً: آدلين وجوني. كلّا، هذا مثالٌ سيئ. آها، ليز تايلور وريتشارد بورتون. ولكن هذا المثال أيضاً ليس أفضل من سابقه بكثير.

ربّما سيكون بوسعي أن أستعيد آن. كان يجب أن أستعيد

آن. يمكن التعويض عن كلّ شيء. لم نكن قد بذلنا كلّ محاولاتنا. لكثرة ما امتنعنا عن الكلام لكي لا نسيء بعضنا إلى بعض، انفصلنا من دون أن نقول أيّ شيء. كنّا معاً، من جديد، وكنّا نضحك حالما نذكر حادثة طلاقنا وانفصالنا. لقد اعتدنا على المصاعب.

كلّا، إذا ما فكّرنا جيّداً، لم نكن قد اعتدنا على المصاعب. في السابق، كانت علاقات الزواج تقاوم هكذا نوع من العلاقات العابرة، اليوم، علاقات الزواج أصبحت بحدّ ذاتها علاقات عابرة. المجتمع الذي ولدنا فيه يعتمد على الأنانية. يسمّي علماء الاجتماع هذه الظاهرة بالنزعة الفردية في حين أنّ هناك تعبيراً أكثر بساطة: نحن نعيش في مجتمع العزلة والوحدة. لم تعد هناك روابط تربط أفراد الأسرة الواحدة، ولم تعد هناك روابط اجتماعية بين أبناء القرية الواحدة، بل ولم يعُد هناك ربّ يُجمِع الناس على الإيمان به. لقد قام أخوانُنا الكبار بتحريرنا من كلّ صنوف الاضطهاد هذه وبدلاً من ذلك شغّلوا جهاز التلفاز ليكون بديلاً من كلّ تلك الروابط الاجتماعية. لقد هجرنا أنفسنا وأصبحنا غير قادرين على أن نهتمّ بأيّ شيء كان عدا سرّتنا.

ومع ذلك وضعتُ خطّة. كنتُ أتمنّى ألا أُرغَم على الوصول إلى هذه النهاية، ولكن مغادرة أليس في عطلة مع

زوجها كانت تستحقّ أن يكون هناك ردٌّ نووي من جهتي. هذه المرّة رُميت الكرامة في النهر. خطّتي هي أن أتّصل بآن. رفعتُ سمّاعة الهاتف مع ابتسامة أردتُها أن تكون ميكافيلية والتي لم تكُن سوى ترهيب.

42

الحيلة المؤثّرة

سألتُ آن وأنا أدفع طاولة المطعم لكي تستطيع أن تجلس على الكرسي:

- كم من الوقت مضى من دون أن نلتقي؟ في الفترة الماضية، كنّا نحبّ أن نتناول العشاء جنباً إلى جنب في هذه الحانة، لكن الماضي كان ماضياً، وهذا المساء نتناول العشاء وجهاً لوجه.

نظرت إليّ بفضول قبل أن تردّ عليّ:

- أربعة أشهر، وأسبوع وثلاثة أيام وثماني ساعات و(قالت هذا وهي تدقّق في ساعة يدها) ثلاث عشرة ثانية.

- وثلاث وأربعون ثانية، أربع وأربعون، خمس وأربعون...

بدأنا بإشغال الحديث بكلّ الأشياء التي تتيح اجتناب ما هو جوهري: مهننا وأصدقاؤنا وذكرياتنا. كما لو أنّ كلّ ما مرّ

لم يحدث. لكنّ آن كانت تعرف جيّداً أنني كنتُ تعيساً، وقد جعلها هذا حزينة لكونها لم تكن هي سبب تعاستي هذه. مع تناول الحلوى بعد العشاء، توتّرت وهاجمتني قليلاً.

- حسناً، لِمَ توجّه لي الدعوة إلى العشاء لكي نروي لبعضنا قصص أصدقائنا القدامى. ماذا تُريد أن تقول لي؟

- حسناً... هناك أمور متعلّقة بكِ في البيت، كنتُ أسأل نفسي إن كنتِ تريدين المجيء للقيام بها. وفي الوقت نفسه، قد يمكننا أن نستفيد من ذلك في قضاء عطلة نهاية الأسبوع معاً ونرى إن كان...

- ماذا؟ هل وقعتَ على رأسك أم ماذا؟ لقد تطلّقنا وانفصلنا يا عجوزي! أعرف تماماً أنّه لستُ أنا مَن وقعتَ في حبّها، ثمّ تبّاً لك، لستُ لعبة يمكنكَ أن تجرجرها خلفكَ من مكانٍ إلى آخر.

- اسكتي! أخفضي صوتكِ...

توجّهتُ إلى الجالسين إلى الطاولة التي بجوارنا:

- نحن تطلّقنا وانفصلنا، وأنا أقترح عليها الآن أن نسافر في عطلة نهاية الأسبوع وقد رفضَت ذلك. هذا هو الأمر، لا بأس، ها قد عرفتَ كلّ شيء. هل يمكنك الكفّ عن الإنصات إلينا الآن؟ أم أنّ حياتك مع هذه التافهة التي أمامك سيئة إلى هذه الدرجة حتى تكون بحاجة إلى التنصّت على حياة الآخرين؟

نهض الجار، وكذلك أنا، فصلَت زوجتانا بيننا.

باختصار، هناك شيءٌ من (الأكشن) في هذا الكتاب. ثمّ دفعتُ الحساب وخرجنا من المطعم. في الخارج، كان الليل مظلماً أكثر من ذي قبل. في الشارع، خطونا عدّة خطوات ونحن نضحك ونمرح. طلبتُ منها أن تسامحني. قالت لي لا بأس. يبدو أنّها تتقبّل هذا الانفصال أفضل منّي.

- مارك، لقد فات الأوان. لقد وصلنا إلى نقطة اللاعودة. أنا أحبّ شخصاً آخر، وأنت أيضاً تحبّ امرأة أخرى: لم يعُد لدينا أيّ شيء نفعله معاً.

- أعرف، أعرف، أنا مضحك... كنتُ أقول في نفسي إنّنا قد نستطيع أن نُعيد المحاولة مجدّداً... هل أنتِ متأكّدة من أنّكِ لا تريدين أن أرافقكَ؟

- كلّا، شكراً، سوف أستقلّ سيارة الأجرة هذه... مارك، سوف أعطيكَ معلومة بشأن علاقاتك مع نسائك المستقبليات. عليك أن تتعلّم أن تضع نفسك في مكانهنّ.

ومن ثمّ وعلى نحوٍ مفاجئ، في لحظة الافتراق، تصاعد الانفعال والتأثّر. تمالكنا دموعنا، لكنّها انهمرت في داخلنا. لن أسمع ضحكتها الطفولية مرّة أخرى. سوف يستمتع رجلها الجديد بتلك الضحكة بدلاً منّي إذا ما أضحَكَها. لقد أصبحَت آن غريبة عنّي. لقد افترقنا لكي يذهب كلٌّ منّا في طريقه. ركبَت سيارة الأجرة، وأغلقَت باب السيارة عليها بهدوء، فابتسمَت لي من خلف زجاج النافذة، وابتعدَت بها

السيارة. . . لو كان المشهد في فيلم جميل، لشرعتُ في الجري خلف السيارة تحت المطر، ولارتمى أحدنا بين ذراعَي الآخر عند أوّل إشارة مرور حمراء. أو أنّها هي مَنْ كانت ستغيّر رأيها، فجأةً، وتتوسّل إلى السائق أن يتوقّف، مثل أودري هيبورن وهولي غولايتلي في فيلم **الإفطار عند تيفاني**. ولكننا لسنا في فيلم سينمائي. نحن في الحياة الواقعية حيث تسير سيارات الأجرة.

يغادر المرء أوّلاً منزل والديه، ومن ثمّ، أحياناً، يغادر بيته الزوجي الأوّل، ودائماً يشعر المرء بالوجع نفسه، وجع الإحساس باليُتم إلى الأبد.

43

حلقة تافهة

يتناول الأزواج العشاء معاً، أمّا العشّاق فيتناولون الغداء معاً. إذا ما شاهدتم زوجين في مطعم عند منتصف الظهيرة، حاولوا قليلاً أن تلتقطوا صورة لهما وسوف تعرّضون أنفسكم للتوبيخ. جرّبوا الشيء نفسه على زوجين آخرين، في المساء: سوف يبتسم الزوجان لكم وسوف يقفان في لقطة جميلة أمام عدستكم.

ما إن عادت من عطلتها الزوجية، اتّصلت أليس بي. بعد أن وضعتُ نفسي في مكانها، وتخيّلتُ ما كان يجري في رأسها، اقترحتُ عليها ببرود أن نتناول الغداء بمفردنا.

- سوف أجلب معي جهاز عرض الصور كشرائح.

لم تجد أليس ذلك مضحكاً، الأمر الذي أراحني لأنني لم أكُن أسعى إلى أن أكون مضحكاً حينذاك. ما إن وصلت،

أقسمت لي أنّ رحلتها مع زوجها كانت فظيعة وأكّدت لي أنّهما لم يمارسا الحبّ أبداً، ولكنني قاطعتها:

- كلّ شيء على ما يُرام. سوف أخرج هذه الليلة مع آن.

نعرف جميعاً أنّ هذا خطأ، عدا أليس التي تلقّت لتوّها صاروخ سكود في وجهها مباشرة.

- آه.

عدتُ إلى سياق الحديث وسألتها:

- إذاً، هل كانت الرحلة جيّدة؟

صفعتني أليس ومع ذلك هي مَن انفجرت باكية. آنذاك، قمتُ بتجميع الوجبات الميلودرامية. لحسن الحظّ، لم يكن هناك أحد على الطاولة المجاورة لنا. ولسوء الحظّ، حتى أليس انصرفت. لن يضجّ المطعم بالحيوية بعد مغادرتها. استمتعتُ بانتقامي منها، «بقيتُ وحيداً مع قلبٍ مليءٍ بالصدقات» (بول موران)، وانكببتُ على شرب كميات كبيرة من الكحول إلى درجة أنني لم أعُد أقوى على أن أبقى واقفاً على قدميّ، ولا حتى أن أبقى جالساً في مكاني. أمضيتُ غداءً آخر من دون تناول الطعام. الانتقام طبقٌ لا يؤكَل.

ما هو مثيرٌ للدهشة، ليس أنّ حياتنا هي عبارة عن مسرحية، وإنّما هو أنّها تضمّ عدداً قليلاً جدّاً من الشخصيات.

44

مُراسَلة (4)

بعد مرور أسبوع

الرسالة الأخيرة إلى أليس:

«حبيبتي،

لم تُثمر عطلة نهاية الأسبوع هذه مع آن أيّ شيء. دَعينا لا نعود إلى الحديث عن هذا الموضوع. أردتُ أن أكون مثلكِ ثابتاً على موقفي، وأكون متأكّداً من أنني اتّخذت الخيار الصحيح. أعتذر عمّا ألحقتهُ بكِ. أردتُ أن تعرفي أيضاً إلى أيّ درجة تألمتُ في فترة قضائكِ للعطلة. هذا شيء من الغباء والحماقة وأنا أعرف ذلك. لأنّكِ لن تعرفي أبداً إلى أيّ درجة تسبّبتِ لي بالألم.

أليس، لقد خُلقنا لكي يكون أحدنا للآخر. هذا أمرٌ مخيف. كلُّ شيء يكون جميلاً حينما يكون معكِ، حتى أنا. لكن خوفكِ يخيفني. إنّه لأمرٌ لا يُطاق أن لا أكون الرجل

الوحيد في حياتكِ. أنا أكره ماضيكِ الذي ينغّص مستقبلي ويُثقِلُ عليه.

كم وددتُ لو أنّ كلّ هذا الألم يُفيد في شيء. لماذا لا تضعين ثقتكِ فيّ؟ هل لأنني مجنون؟ هذا لا يُعتَبَر ملامةً لأنّكِ أنتِ أيضاً مجنونة. هل تعتقدين أنّنا نحبّ بعضنا فقط لكي نعاني من الحزن والألم؟ في هذه الحالة، من الأفضل لنا أن نترك بعضنا. أفضّل أن أكون حزيناً من دونكِ لا معكِ.

حبّنا غير قابلٍ للزوال، من غير المفهوم أنّكِ لا تدركين ذلك. أنا مستقبلكِ. أنا هنا، أنا موجود، لا يمكنكِ أن تستمرّي في العيش كما لو أنني لستُ موجوداً. أنا آسف. كما يُقال: «هذا قدركِ».

ليس لنا الحقّ في أن نهرب من السعادة. غالبية الناس ليست لديهم الفرصة التي نحظى بها. حينما يُعجَبون بعضهم ببعض، لا يقعون في الحبّ. أو حينما يكونون عشّاقاً، لا تسير أمورهم في السرير على ما يُرام. أو حينما تسير أمورهم في السرير على ما يُرام، لا يملكون ما يقولونه بعد ذلك. أمّا نحن، فلدينا كلّ شيء، سوى أننا لا نملك شيئاً طالما لسنا معاً.

ما نفعله لا يُغتَفَر. فلنكفّ عن تعذيب نفسينا. من الإجرام أن لا نسارع إلى إسعاد نفسينا حينما تتوفّر لنا الفرصة أخيراً لفعل ذلك. نحن وحوشٌ بحقّ نفسينا. هل سنستمر طويلاً على هذه الحال؟ نفعل هذا في سبيل إسعاد مَنْ؟ من

المؤسف أن يتسبّب المرء بكلّ هذا الألم لنفسه وللآخرين، من أجل لا شيء. لا أحد سوف يلومنا على تمسّكنا بفرصتنا.

سوف تكون هذه فعلاً رسالتي الأخيرة إليكِ. لم يعُد بوسعي أن ألعب لعبة القطّ والفأر. لقد تحطّمتُ وتعبتُ، عند قدميكِ، وأنا أنتظر رصاصة الرحمة. انطلاقاً من مستوى معيّن من الألم، نفقد كلّ كبريائنا. لا أكتبُ إليكِ لكي أطلب منكِ المجيء: أكتبُ إليكِ لأخبركِ بأنني سأكون دائماً هنا. إشارةٌ واحدة منكِ وسوف نؤسّس معاً مزرعة للنعام. لا تقومين بأيّ بادرة باتجاهي على الرغم من أنني موجودٌ دائماً في مكانٍ ما، على الكوكب نفسه الذي أنتِ عليه، وأنتظركِ. أحبّكِ إلى حدّ الجنون، لا أرغب إلّا فيكِ وحدكِ، لا أفكّر إلّا فيكِ، أنا أنتمي إليكِ جسداً وروحاً.

حبيبكِ مارك الذي بكى وهو يكتب هذه الكلمات».

45

إذاً

إذاً، لقد أمسكتُ بقلمي لكي أكتب وأقول إنني أحبّها وإنّ لديها أطول شعرٍ في العالم وإنّ حياتي غارقة فيها، وإذا كنتَ ترى أنّ هذا مثيرٌ للضحك أيّها المسكين المثير للشفقة، فإنّ عينيها لي، إنّها أنا وأنا هي، وحينما تصرخ، أنا أصرخ أيضاً وكلّ ما سأفعله إلى الأبد سيكون من أجلها، دائماً، وسوف أَهَبُها كلّ شيء حتى لحظة مماتي، سوف أستيقظ كلّ صباح من أجلها وحدها وأثير فيها الرغبة في أن تحبّني وأقبّل مراراً وتكراراً يديها ومعصميها وكتفيها. حينها أدركتُ أنّ الكاتب حينما يكون عاشقاً يكتب جملاً لا نهاية لها ولا يعود لديه الوقت أبداً لكي يضع النقاط، يجب عليه الاستمرار في الكتابة والكتابة والجري إلى أبعد من قلبه، لا رغبة للجملة في أن تصل إلى نهايتها، ليست للحبّ علامات ترقيم، ودموع العاطفة تنهمر، وحينما نحبّ، ينتهي بنا الأمر دائماً إلى كتابة أشياء لا نهاية لها، حينما نحبّ، ينتهي بنا الأمر دائماً إلى أن

نعتبر أنفسنا ألبير كوهين، أليسْ جاءت، أليسْ هجرت أنطوان، لقد رحلت، أخيراً، أخيراً، ونحلّق عالياً ذهنياً وجسديّاً، لقد ركبنا أوّل طائرة إلى روما طبعاً، وأين يوجد مكانٌ رومانسي أفضل من روما، أوتيل دانكلوتير، بيازا نافونا، فونتين دي تريفي، أمنيات خالدة، نزهات على دراجة فيسبا، حينما طلبنا الخوذات الواقية، فَهِمَ مؤجّر الدرّاجات النارية كلّ شيء وأجاب بأنّ الجوّ حارٌّ جدّاً، حبّ، حبّ متواصل، لم يسبق لكما قط أن تلذّذتما واستمتعتما بهذا القدر، كلّ شيء يتكرّر، لم تعودا وحيدين، السماء وردية، من دونكِ أنا لا شيء، أخيراً، ها أنا ذا أتنفّس، نسير فوق الحجارة المرصوفة، التي تعلو الأرض ببضعة سنتيمترات، لا أحد يرى ذلك سوانا، نحن على الوسائد الهوائية، كنّا نضحك من دون سبب لسكّان روما الذين يعتبروننا متخلفين عقلياً، أعضاء مذهبٍ، مذهب الذين يبتسمون وهم يحلّقون في الهواء، لقد أصبح كلّ شيء سهلاً الآن، نضع خطوة أمام أخرى وتحضر السعادة ويحضر الحبّ والحياة وطماطم الموزاريلا المغطّسة في زيت الزيتون ومعجّنات الباستا بجبنة البارميزان، لا نُنهي أبداً الأطباق، مشغولين جدّاً بالنظر بعضنا إلى عيني بعض ونداعب أيدينا المتشابكة، أعتقد أننا لم ننَم منذ عشرة أيام، عشرة أشهر، عشرة أعوام، عشرة قرون، والشمس على شاطئ فريجيني، التقطنا صوراً رقمية فائقة الدقّة كتلك الصورة التي عثرت عليها آن في حقيبتها في ريو، يكفي

أن أتنفّس وأن أنظر إليكِ، هذا دائماً، هذا دائماً وإلى الأبد، هذا لا يُصدّق وحابسٌ للأنفاس مثلما تخنقنا فرحة العيش، لم يسبق لي قط أن عشتُ هذا، هل تشعرين بما أشعر به؟ لن يكون بوسعكِ أبداً أن تحبّيني بقدرِ ما أحبّكِ، كلا أنا منْ أحبّكِ أكثر منكِ، كلا هذا أنا، كلا هذا أنا، حسناً هذا نحن، إنّه لأمرٌ مدهش أن أصبح غبيّاً وسخيفاً تماماً وأركض نحو البحر، لقد خُلِقتِ لكي تكوني لي، كيف يمكنني أن أعبّر عن شيءٍ على هذا القدرِ من الجمال بكلماتٍ، إنّه كما لو أننا، كما لو أنّنا قد خرجنا من ليلٍ مظلم لكي نلجَ نهاراً مبهراً، مثل ارتفاع منسوب عقار النشوة الذي لن يتوقّف أبداً، مثل ألمٍ في البطن يزول، مثل النفحة الأولى من الهواء التي تستنشقها بعد أن تكون قد حبستَ أنفاسكَ تحت الماء، مثل جوابٍ وحيد عن كلّ الأسئلة، تمضي الأيام مثل دقائق، ننسى كلّ شيء، نولَدُ في كلّ ثانية، لا نفكّر في أيّ شيءٍ قبيح، نحن في حاضر دائم، شهواني، جنسيٌّ، رائعٍ، لا يُقهَر، لا يمكن لأيّ شيءٍ أن يُصيبنا، نحن على قناعةٍ بأنّ قوّة هذا الحبّ سوف تُنقذُ العالم، أوه نحن في غاية السعادة، أنتِ في طريقكِ للصعود إلى الغرفة، انتظريني في البهو، سوف أعود في الحال، وحينما أخذتِ المصعد تسلّقتُ الدرج وأنا أقفز على كلّ أربع درجات دفعة واحدة، ولدى خروجكِ من المصعد، أنا مَنْ فتحتُ لكِ الباب، أوه كانت عيوننا مليئة بالدموع لأننا افترقنا لثلاث دقائق عن بعضنا، حينما كنتِ تقضمين درّاقة ناضجة

جيّداً كان عصير الفاكهة يسيل على فخذيكِ السمراوين أو تبّاً أنا أشتهيكِ كلّ الوقت، أشتهيكِ أكثر فأكثر، انظري كيف نعيش المتعة معاً، لم نزُر أيّ معلمٍ سياحي في هذه المدينة، لقد تمّ الأمر وانطلقت في ضحكةً مجنونة، ماذا قلتُ لكي تضحكي هذه الضحكة المجنونة، إنّها حالة عصبية فحسب، لقد استمتعتُ كثيراً جدّاً. أنا أعشقكِ، يا حبيبتي، في أيّ يومٍ نحن؟

مكتبة
t.me/t_pdf

II

بعد مرور ثلاث سنوات في فورمينتيرا

1

قبل سبعة أيام(*)

كازا لو مولت. ها أنا ذا في جزيرة فورمينتيرا لكي أنهي هذه الرواية. سوف تكون هذه روايتي الأخيرة: أنا أنتهي الآن من كتابة هذه الثلاثية (في الجزء الأول، وقعتُ في الحبّ؛ في الجزء الثاني، تزوّجت؛ في الجزء الثالث، طلّقتُ زوجتي ووقعتُ في الحبّ من جديد، لقد اكتملت الدائرة). حاولنا جدّياً أن نُبدع في الشكل (كلمات أجنبية، مصطلحات إنجليزية، التقاط صور رقمية فائقة الدقّة، شعارات دعائية. . . إلخ)، كما في المضمون (ارتياد الملاهي الليلية، جنس، مخدّرات، الروك أند رول. . .)، لقد أدركنا سريعاً أنّ كلّ ما نريده هو أن نكتب رواية حبّ بجُمَل بسيطة جدّاً، الأمر الذي يصعُب كثيراً القيام به.

(*) يستخدم الكاتب هنا هذه الصيغة للدلالة على بدء العدّ العكسي لانقضاء ثلاث سنوات على زواجه. -المترجم-

أصغي إلى صخب البحر. لقد ابطأتُ من سرعتي أخيراً. السرعة تمنع المرء من أن يكون ذاته. هنا الأيام لها مدّة زمنية يمكن قراءتها في السماء. لا سماء لحياتي الباريسية. كتابة نصّ إعلاني، إرسال مقالة عبر الفاكس، الردّ على الهاتف بسرعة، الجري من اجتماعٍ إلى اجتماع، تناول الغداء على عجل، بسرعة، بسرعة، الإسراع على درّاجة سكوتر لكي أصل متأخّراً إلى حفلة كوكتيل. كانت حياتي العبثية تستحقّ تماماً أن أكبحها وأن أفكّر بتركيزٍ وهدوء. ألّا أفعل إلّا أمراً واحداً في كلّ مرّة. أن أداعب جمال الصمت. وأن أستمتع بالبطء. وأستمع إلى عطر الألوان. وكلّ هذه الأمور التي يريد العالم أن يمنعنا منها.

كلّ شيء قابلٌ للإصلاح. يجب إعادة تنظيم كلّ شيء في هذا المجتمع. اليوم مَنْ يملكون المال ليس لديهم الوقت، والذين لديهم الوقت، لا يملكون المال الكافي. التملّص من العمل صعبٌ تماماً مثل التخلّص من البطالة. الكسول الخامل هو العدوّ العام رقم واحد. يتمّ ربط الناس مع المال: إنّهم يضحّون بحريتهم لكي يدفعوا ضرائبهم. يجب ألّا ندور ونلفّ حول الموضوع: إنّ التحدّي الأساسي في القرن المقبل سوف يكون إنهاء دكتاتورية الشركات.

فورمينتيرا، الجزيرة الصغيرة. . . ، القمر التابع لإيبيزا في مجموعة نجوم جزر البليار. فورمينتيرا، هي كورسيكا من دون القنابل، إيبيزا من دون الملاهي الليلية، منتجع موستيك من دون ميك جاغر، كابري من دون هيرفيه فيلار، بلاد الباسك من دون المطر.

شمسٌ بيضاء. نزهة على دراجة فيسبا. حرارة وغبار. أزهار جاقّة. بحرٌ فيروزي. رائحة أشجار الصنوبر. صرصرة صراصير الليل. سحالٍ مذعورة. خرافٌ تثغو وتقول: Mêêê.

رددتُ عليها قائلاً:

- لا يوجد (Mais - «ولكن»)(*).

شمسٌ حمراء. طبق غامباس آ لا بلانشا (جمبري بالصلصة البيضاء). أغنية فاموس آ لا بلايا. نجوم الليل. مشروب جن مع ليمون. كنتُ أبحث عن الراحة والهدوء، هنا في هذا المكان، حيث الجوّ حارٌّ جدّاً من أجل كتابة جُمَلٍ طويلة. يمكن للمرء أن يكون في عطلة في مكانٍ آخر غير المكان الذي يصبح فيه في حالة غيبوبة. البحر امتلأ بالماء.

(*) يستثمر الروائي، هنا، الجناس اللفظي في اللغة الفرنسية بين كلمة Mêêê التي تُحاكي صوت ثغاء الخروف وكلمة Mais التي تعني (ولكن). -المترجم-

والسماء تتحرّك من دون توقّف. والنجوم تهرب بعيداً. سيكون استنشاق الهواء متواصلاً.

هذه هي حكاية رجلٍ انزوى وحيداً في جزيرة لكي يُنهي تأليف كتابٍ. يعيش الرجل حياةَ عُتهٍ وبلاهة، وقد جعله هذا الأمر غريباً جدّاً في أن يجد نفسه مستسلماً لنفسه، في الطبيعة، من دون تلفاز، وبلا هاتف. في باريس، كان دائم العجلة ويتحرّك بديناميكية في كلّ اتّجاه، بينما هنا لا يتحرّك في النهار من مكانه ويتنزّه في المساء، وحيداً دائماً. مَثَله الأعلى بارنابوت في فلورنسا، وبايرون في فينيسيا، وباندا حديقة الحيوانات في فنسين. لا يُلقي تحيّة الصباح إلّا على نادلة سان فرانسيسكو. يرتدي الرجل قميصاً أسود اللون، وحذاءً من ماركة تودس، ويشرب الباستيس وأكواباً من الجين بالليمون ويتناول رقائق البطاطس والتورتيلا. لا يستمع إلّا إلى أسطوانة واحدة: **سوناتا كرويتزر** للعازف آرثر روبنشتاين، بل وشوهِد البارحة وهو يُصفّق لهدفٍ سجّله المنتخب الفرنسي في مباراةٍ ضدّ الفريق الإسباني، وهو أمرٌ ينمّ عن شيءٍ من التفاهة، ولكن أيضاً ينمّ عن الشجاعة، حينما تكون الفرنسي الوحيد في إسبانيا في حانة تقع في ميناء بحري. لو صادفتم هذا الرجل، لقلتم في نفسكم من دون أدنى شكّ: «ولكن ماذا يفعل هذا المغفّل الباريسي في لافوندا بيبي خارج الفصل المناسب؟» هذا الكلام يضايقني قليلاً لأنّ الرجل المعنيّ هو

أنا. لذلك، خفّفوا علينا من فضلكم، شكراً. أنا الناسك الذي يبستم للريح الفاترة.

بعد أسبوعٍ من الآن، ستكون قد انقضت ثلاث سنوات على حياتي مع أليس.

قبل ستة أيام

حسناً، اتّفقنا، حينما هَجَرَت أليس أنطوان، ثمّ حينما انتقلنا لنعيش معاً في حي مازارين (الحي الذي مات فيه أنطوان)، لا أخفي عليكم أنّ القلق قد ساورني في بعض الأحيان. السعادة أكثر رعباً بكثير من التعاسة. إنّ حصولي على أكثر ما كنتُ أرغب فيه في الدنيا ملأني فرحاً وفي الوقت ذاته أغرَقَني في الشكّ. هل سأكرّر الأخطاء نفسها؟ ألم أكُن مجرّد رومانسي دَوري؟ الآن وقد أصبحَتْ هنا، هل أحقد عليها فعلاً؟ هل يمكنني أن أصبح حنوناً للغاية؟ هل سيحدث لي أن أملّ معها؟ متى سأغضب وأفقد رشدي، اللعنة؟

كان أنطوان يريد أن يقتلني، ويقتلها ويقتل نفسه. كان اقترانا ينبني على رماد حالَتَي طلاق، كما لو أنّه ينبغي له أن يتغذّى من أضحيتين بشريتين لإقامة حبّ جديد. كان عالِمُ

الاقتصاد جوزيف شومبيتر يُطلق على هذه المسألة تسمية «الهدم البنّاء أو التدمير الإبداعي»، لكن شومبيتر عالم اقتصاد، وعلماء الاقتصاد نادراً ما يكونون عاطفيين. لقد دمّرنا زواجَيْن لكي نبقى معاً، مثل القُراد الذي يمتصّ دماء ضحاياه لكي يتضخّم. السعادة شيءٌ متوحّش إن لم تقتلك أنت بنفسك، سوف توجب عليك على الأقلّ أن تقوم أنت ببعض عمليات القتل.

جاء جان-جورج لكي ينضمّ إليّ في فورمينتيرا. قمنا معاً بإعادة صنع العالم ومن ثمّ ذهبنا لزيارة الأسماك في قاع البحر. إنّه يكتب نصّاً مسرحياً، وبالتالي يشرب أكثر منّي.

قصيدة للقراءة في حالة سُكر:

في فورمينتيرا
سوف تختمر. (*)

صادفنا أزواجاً مسنّين من الهيبيين المنتشين، الذين ظلّوا معاً، هنا، منذ سنوات الستينيات. كيف تصرّفوا حتى صمدوا

(*) هناك لعب على الكلمات في النص الفرنسي الأصلي (A Formentera Tu fermenteras). -المترجم-

كلّ هذا الوقت الطويل معاً؟ كانت عيناي تتغرغران بالدموع. اشتريتُ لهم الحشيشة. شربنا، جان-جورج وأنا، في الحانات ونحن نلعب لعبة البلياردو. روى لي قصص حبّه. كان قد التقى لتوّه بامرأة حياته، وهو سعيدٌ بذلك، للمرّة الأولى.

قال:

- نحن لا نعيش من أجل أيّ شيءٍ آخر سوى الحبّ.

- وإنجاب الأطفال؟

- مستحيل. لن أفعل ذلك! إنجاب طفل في عالمٍ كهذا؟ مجرم! أناني! نرجسي!

قلتُ وأنا أرفع إصبعي:

- بالنسبة إليّ، أنا أصنع للنساء ما هو أفضل من طفل: أصنع لهنّ كتاباً.

ألقينا نظرات على النادلة. كانت تبدو جميلة وهي ترتدي سترة بوليرو فضفاضة تبلغ خصرها، ويغزو بشرتها الداكنة زغبٌ خفيف، ولها عينان واسعتان سوداوان، تقف مقوّسة الظهر، شرسة مثل محاربة أميركية هندية حمراء.

قلت:

- إنّها تشبه أليس. ولذلك حتى إنْ قضيتُ ليلة معها، لن يُعتَبَر ذلك خيانةً.

ظلّت أليس في باريس، وسوف تأتي للّحاق بي هنا بعد أسبوع.

بعد ستّة أيام، ستكون قد انقضت ثلاث سنوات على حياتي معها.

3

قبل خمسة أيام

النادلة التي ترتدي فستاناً يكشف عن ظهرها عارياً اسمها ماتيلدا. إنّها لذيييذة. غنّى لها جان-جورج أغنية هاري بيلافونت:

Matilda she take me money and run Venezuela.

أعتقد أنني كنتُ لأقعُ في حبّها لو أنّني لم أكن مشتاقاً إلى أليس كثيراً. كنّا قد دعوناها إلى الرقص، في حانة سيس روكيس. كانت ترقص وهي تركّز كلّ حواسها وتهزّ ردفيها ويهتزّ شعرها عاصفاً. كان تحت إبطيها مشعراً.

سألها جان-جورج:

- عفواً يا آنسة، نحن نبحث عن مكانٍ لكي ننام فيه. ألا يوجد لديك مكان في بيتك، من فضلكِ؟

كانت تضع سلسالاً رفيعاً من الذهب حول خصرها

وسلسالاً آخر حول أعلى كاحلها. للأسف، ماتيلدا لم تأخذ نقودنا ولم تهرب إلى فنزويلا. اكتفت بأن لفّت معنا سجائر الممنوعات إلى أن نمنا تحت النجوم. كانت أصابعها طويلة ورشيقة. تلعق ورق السجائر بنشاط. أعتقد أننا جميعاً كنّا مضطربين جدّاً، حتى هي نفسها.

لدى العودة إلى الكازا، ارتمت عليّ ماتيلدا، بكل أنوثتها ومغرياتها، وأمضينا ليلة ماجنة من الحب والجنون. وبعد ذلك مباشرةً... استيقظتُ من حلمي وأنا أتصبّب عرقاً وأموت عطشاً. ما كان على ناسكٍ حقيقي أن يُفرط في استخدام هذه النباتات الغريبة.

بعد خمسة أيام، ستكون قد انقضت ثلاث سنوات على حياتي مع أليس.

4

قبل أربعة أيام

حينما يصبح الرجل وحيداً يعود في نمط حياته إلى عصر ما قبل التاريخ: بعد مضيّ بضعة أيام لا يعود يحلق ذقنه، ولا يعود يغتسل، يتذمّر ويُطلق الآهات. احتاج بلوغ الكائن البشري عصر الحضارة إلى عدّة ملايين من السنين، في حين أنّ العودة إلى عصر إنسان النياندرتال تستغرق أقلّ من أسبوع. يوماً بعد آخر، أصبحَت مشيتي تشبه أكثر مشية القرد. أصبحتُ أحكّ خصيتيّ، وأتناول فضلات أنفي، وأتحرّك من مكانٍ إلى آخر بقفزات صغيرة. وفي أوقات تناول الوجبات، كنتُ أرتمي على الطعام بلا تنظيم أو ترتيب وألتهمه باستخدام أصابعي، وأنا أخلط النقانق والعلكة، ورقائق البطاطا بالجبنة والشوكولا بالحليب، والكوكا كولا والنبيذ. ثم أتجشّأ وأطلق رياحاً وأشخر. هذا هو حال كاتب فرنسيّ شابّ وطليعي.

حطّت أليس في المكان على نحوٍ مفاجئ. وضعت يديها

على عيني وهي تسير خلسة من خلفي، وذلك قبل ثلاثة أيام من الموعد المحدّد لوصولها.

قالت:

- مَن أكون؟

أجبتها باللغة الإسبانية:

- لا أعرف. ماتيلدا؟

- أيّها الوغد!

- أليس!

لقد ارتمينا في أحضان بعضنا.

- حسناً، لكي تكون مفاجأة، إنّها مفاجأة!

هل كنتُ مجبراً على أن أقول هذا؟

- اعتَرِفْ بأنّك لم تكن تنتظر هذه المفاجأة، أليسَ كذلك؟ وقبل كلّ شيء، مَن تكون ماتيلدا هذه؟

- أوه لا شيء... إنّها من سكان البلدة أحضَرَها جان-جورج إلى هنا البارحة مساءً.

إذا لم تكن هذه هي السعادة بعينها، فهي في كلّ الأحوال شيءٌ يشبهها كثيراً: قضمنا بعض رقائق السيرانو على الشاطئ، كانت المياه فاترة، اسمرّت بشرة أليس بفعل الشمس ومنحها ذلك عينين زرقاوين. أخذنا قيلولة في فترة ما بعد الظهيرة. لعقتُ آثار ملح البحر عن ظهرها. لم يسبق لنا أن نمنا بهذا القدر. أثناء ممارسة الحبّ، عرضت عليّ أليس

قائمة الصبيان الذين توسّلوا إليها أن تهجرني في باريس. رويتُ لها بالتفصيل حلمي الإباحي الذي حلمتُ به في الليلة الماضية. لماذا كلّ النساء اللواتي أحبّهنّ لهنّ أقدام باردة؟

انضمّ إلينا جان-جورج وماتيلدا لتناول العشاء معنا. بدا أنّهما متحابّان جدّاً. لقد اكتشفا أنّ كلاً منهما قد فقد والده في هذه السنة.

قالت ماتيلدا:

- ولكنّ حالتي أكثر صعوبة لأنني فتاة.

قال جان:

- أنا أمقت الفتيات المفتونات بوالدهنّ، خاصة حينما يكون ميّتاً.

أبديتُ رأيي، قائلاً:

- الفتيات اللواتي لم يَفْتَتنّ بوالدهنّ أبداً باردات أو مثليات.

رقصت أليس وماتيلدا معاً كما لو أنّهما شقيقتان. تمسّكنا بهما. يبدو الوضع جيداً، وكان يمكن أن يتدهور. افترقنا على مضض، ولكننا عوّضنا عن ذلك كلٌّ في غرفته.

قبل أن أنام، أنجزتُ أخيراً حركة ثورية: تخلّيتُ عن ساعة يدي. لكي يدوم الحبّ دائماً، يكفي أن نعيش خارج الزمن. العالم المعاصر هو الذي يقتل الحبّ. ماذا لو نستقرّ

هنا؟ لا شيء يكلّف غالياً هنا. سوف يمكنني أن أرسل أوراقاً بالفاكس إلى باريس، وأن أطلب دفعات مسبقة من عدّة ناشرين، ومن حينٍ إلى آخر سيمكنني أن أرسل حملة إعلانية عبر البريد السريع...

وسنشعر بالملل حتى الموت.

اللعنة، لقد استبدّ بي القلق. أشعر بأنّ الخطر قادم. لقد سئمتُ من نفسي. وددتُ كثيراً أن يخبرني أحدٌ ما بما أرغب فيه. صحيحٌ أنّ حبّنا يصبح، من حينٍ إلى آخر، حناناً. هل ستنطلق المكيدة من جديد؟ يجب طرح الإندروفين. أنا أحبّها ومع ذلك أخشى أن يملّ أحدنا من الآخر. أحياناً، نلعب لعبة أن نكون ممّلين عن قصد. تقول لي:

- حسناً... سوف أذهب للتبضّع... إلى اللقاء القريب...

أردّ عليها، قائلاً:

- وبعد ذلك سوف نذهب ونتنزّه...
- ونقطف أزهار إكليل الجبل...
- ونتناول الغداء على شاطئ البحر...
- ونشتري الصحف...
- ولا نفعل أيّ شيء...
- أو ننتحر...

- الموت الوحيد الجميل في فورمينتيرا، هو أن نسقط من الدرّاجة الهوائية، مثل المغنّية نيكو(*).

قلتُ في نفسي إذا كنا نمزح في مثل هذه المواضيع، فهذا يعني أنّ الوضع ليس خطيراً.

يزداد التشويق وحالة الترقّب. بعد أربعة أيام، ستكون قد انقضت ثلاث سنوات على حياتي مع أليس.

(*) في الوقت الذي وجد فيه هذا الكتاب النور، لم يكن جان-إيدرن هالييه قد قلّدها بعد. -المؤلف-

5

قبل ثلاثة أيام

أليس وأنا، كنّا نمارس الحبّ على نحوٍ أقلّ ولكنّ ذلك كان يتحسّن أكثر فأكثر. كانت تدعني أتفرّغ للكتابة طوال فترة ما بعد الظهيرة. وبينما أنا أعمل، كانت هي تستمتع بدفء الشمس على الشاطئ. تعود من الشاطئ نحو الساعة السادسة مساءً وأعدّ لها كوباً من كوكتيل الموريسك المشبع بالثلج. ثمّ أعاين سمرة بشرتها الكاملة. ثم أضاجعها. بعد ذلك، تقرأ جملي هذه من فوق كتفي وتطلب مني أن أحذف كلمة «أضاجعها». أوافق على طلبها وأكتب بدلاً من ذلك «أمارس معها الحبّ»، وحينما تبتعد أقوم بإجراء حركة «تراجع» صغيرة على حاسوبي من طراز ماكنتوش لكي أُبقي على كلمة «أضاجعها». هذا هو ثمن الأدب، فتاريخ الآداب ليس سوى سلسلةٍ طويلةٍ من الخيانات، آمل أنّها ستغفر لي.

أرفض أن أنتهي من كتاب **رقيقٌ هو الليل**؛ ينتابني ما يشبه نذير شؤم: برأيي، لم تعد الأمور على ما يُرام بين ديك ديفر

ونيكول. أستمع إلى معزوفة **لحن كرويتزر** وأنا أفكّر في رواية تولستوي التي منحت اسمها لهذه المعزوفة. إنّها حكاية رجلٍ مخدوعٍ يقتل زوجته. ألهمَه كمان بيتهوفن والبيانو خاصّته اختراع شخصية الزوجين في الرواية. أُصغي إليهما ينضمان إلى بعضهما، ينقطعان عن بعضهما، ينفصلان عن بعضهما، يتصالحان مع بعضهما، يغضبان على بعضهما، ثمّ في النهاية يتوحّدان مع بعضهما في المقطع الأخير من الموسيقى التي تصل إلى ذروتها. هذه هي موسيقى الحياة لثنائيّ. لا يمكن للكمان والبيانو أن يعزف كلٌّ منهما منفرداً...

إذا انتهت قصّتنا، فسوف أكون منهَكاً تماماً لأنّه لن يكون بوسعي أبداً أن أمنح هذا القدر من الحبّ لامرأة أخرى. هل سأقضي حياتي برفقة فتيات الليل وأشرطة الفيديو؟

يجب أن تسير الأمور على ما يُرام وأن تستمرّ علاقتنا.

يجب أن ننجح في تجاوز حدّ الثلاث سنوات. أنا أغيّر رأيي في كلّ ثانية.

ربّما كان علينا أن نعيش على نحوٍ منفصل. الحياة كثنائيّ أمرٌ منهك ومتعِبٌ للغاية.

ليس لديّ أيّ محظورات أو محرّمات؛ فلنعش علاقة حرّة يستطيع فيها كل واحد منّا أن يفعل ما يحلو له.

كلّا. أنا أعرف: يجب أن ننجب طفلاً، بسرعة!

أنا أخاف من نفسي. بدأ العدّ العكسي لأيامنا يقترب من نهايته كما لو أنّ سيف ديموقليس مسلّط على رقبتينا. بعد ثلاثة أيام، ستكون قد انقضت ثلاث سنوات على حياتي مع أليس.

6

قبل يومين

الخطأ هو أن نرغب في حياةٍ ساكنة. حياة يتوقّف خلالها الزمن ويكون الحبّ فيها أبديّاً، ولا يموت أيّ شيء أبداً، لكي نتمتّع بطفولة مدلّلة مدى الحياة. نبني الجدران لكي نحمي أنفسنا وهذه الجدران نفسها هي التي تغدو ذات يوم سجناً يحبسنا.

الآن وأنا أعيش مع أليس، لم أعُد أبني حيطان فاصلة. أعتبر كلّ ثانية معها كما هديّة ثمينة. تبيّن لي أنّه يمكن للمرء أن يحنّ إلى الحاضر. أعيش أحياناً لحظات رائعة بحيث أقول في نفسي: «حسناً سوف أندم على هذه اللحظة فيما بعد: يجب ألّا أنسى أبداً هذه اللحظة، لكي أستطيع أن أفكّر فيها من جديد حينما تسوء بي كلّ الأحوال». اكتشفتُ أنّه لكي يبقى المرء في حالة حبّ، يجب أن تكون في كلّ من الشريكين مساحة لا يمكن الوصول إليها. لا بدّ من رفض

البلادة والركود، الأمر الذي لا يعني أن يختلق المرء لنفسه هزّات وخضّات مصطَنَعة وسخيفة، وإنّما أن يُجيد الاندهاش أمام أعجوبة كلّ يومٍ من أيام حياته. أن يكون كريماً وبسيطاً. نكون في حالة حبّ في اليوم الذي نضع فيه المعجون على فرشاةٍ غير فرشاة أسناننا.

وقد علمتُ على نحوٍ خاصّ بأنّه حتى يكون المرء سعيداً يجب أن يكون قد عانى كثيراً من التعاسة والحزن. من دون أن يتعلّم المرء الألم، لا تكون السعادة راسخة وقوية. إنّ الحبّ الذي يدوم ثلاث سنوات هو الحب الذي لم يعبُر أعالي الجبال ولم يخُض في أعماق البحار، هو الحبّ الذي هبط من السماء جاهزاً من دون عناء. لا يدوم الحبّ ما لم يعرف كلّ واحدٍ من طرفيه ثمنه، ومن الأفضل أن يُدفَع هذا الثمن مقدّماً، وإلّا سوف نجازف بأن نسدّد فاتورة الحساب لاحقاً. لم تتمّ تهيئتنا للسعادة لأنّنا لم نعتد على التعاسة. لقد ترعرعنا وكبرنا في كنف دين الراحة والرفاهية. يجب أن يعرف المرءُ مَنْ هو ومَنْ يُحبّ. يجب أن يكون مكتملاً لكي يعيش قصّة غير مكتملة.

آمل ألّا يكون العنوان المضلّل لهذا الكتاب قد أثار استياءكم: بالتأكيد لا يدوم الحبّ ثلاث سنوات؛ أنا سعيدٌ لأنني كنتُ على خطأ. ليس لأنّ هذا الكتاب نشره المركز الثقافي العربي حتى يقول، بالضرورة، الحقيقة.

لا أعرف ما يُخبّئه لي الماضي (مثلما كانت تقول فرانسواز ساغان)، ولكنني أتقدّم إلى الأمام، وسط الذعر المدهش، لأنّني لا أملك خياراً آخر، أتقدّم إلى الأمام، أقلّ اكتراثاً ممّا كنتُ عليه في السابق، ولكنني مع ذلك أتقدّم إلى الأمام، أتقدّم إلى الأمام على الرغم من كلّ شيء، أتقدّم إلى الأمام وأُقسم لكم أنّ هذا أمرٌ جميل.

نسبح في المياه الصافية والشفيفة لخليجٍ صغيرٍ مهجور. نرقص تحت شرفات المنازل. نتغزّل ببعضنا على قارعة زقاقٍ سيئ الإنارة ونحن نشرب نبيذ ماركيز دي كاسيريس. لا نكفّ عن تناول الطعام. وأخيراً هذه هي الحياة الحقيقية. حينما طلبتُ يدها للزواج، ردّت أليس على طلبي بهذه الإجابة المليئة بالرقّة والحنان والرومانسية والدقّة والجمال والعذوبة والشِّعر:

- كلّا.

بعد غد، ستكون قد انقضت ثلاث سنوات على حياتي معها.

7

قبل يوم واحد

لا مفرّ من الشمس. ربّما لا يكون هذا الأمر واضحاً بالنسبة إليكم، لكنني أمضيتُ ساعاتٍ طويلة حتى عثرتُ على هذه الجملة لكي أستخدمها هنا. بدأت العصافير تزقزق وبذلك تنبّهتُ إلى أنّ الصُّبحَ قد انبلج. حتى العصافير تعيش حالة حبّ. إنّه الصيف الذي غنّت فيه فرقة فوجيز الأميركية أغنية: Killing me softly with his song للمغنية روبيرتا فلاك وأعرف أنني سوف أتذكّرها.

- هل تعلم يا مارك أنّ غداً ستحلّ الذكرى السنوية لمرور ثلاث سنوات على حياتنا معاً؟

- صه! اصمتي! لا يهمّ، لا أريد أن أعرف ذلك!

- أنا أرى ذلك مناسبة لطيفة وجميلة، ولا أدري لماذا يجب أن تكون دائماً مزعجاً.

- أنا لستُ مزعجاً، كلّ ما في الأمر أنّه يجب عليّ أن أعمل.

- هل تريد أن أقول لك؟ أنت أنانيّ مغرور، أنت تهتم بنفسك كثيراً لدرجة أنّك أصبحت مقزّزاً لنفسك.

- لكي نستطيع أن نحبّ شخصاً آخر، يجب أن نحبّ أنفسنا أوّلاً.

- مشكلتكَ هي أنّك تُبالغ في حبّ نفسك لدرجة أنّه لم يعُد هناك مكانٌ لشخصٍ آخر في قلبك!

غادَرَت على متن دراجتي السكوتر، مثيرةً وراءها زوبعة ساحرة من الغبار على الطريق الوعرة. لم أحاول اللحاق بها. بعد ذلك بعدّة ساعات، عادت وطلبتُ منها أن تسامحني وأنا أقبّل قدميها. وعدتُها بأننا سنُقيم وليمة شواء بمفردنا لكي نحتفل بالذكرى السنوية لزواجنا. كانت أزهار الحديقة صفراء وحمراء. سألتها:

- بعد كم من الوقت سوف تهجرينني؟

- بعد عشرة كيلوغرامات.

- مهلاً! ما باليد حيلة إذا كانت السعادة تُسبّب السُّمنة!

في اللحظة نفسها، في باريس، كان فنانٌ يُدعى برونو ريشار يكتب في مدوّنته هذه الجملة: «السعادة هي صمتُ التعاسة». يمكنه أن يموت مرتاحاً بعد هذا.

غداً، ستكون قد انقضت ثلاث سنوات على حياتي مع أليس.

8

اليوم نفسه

حلّ اليوم الأخير من فصل الصيف. بدأنا نشعر بنهاية كلّ شيء على شواطئ فورمينتيرا. رحَلَت ماتيلدا دون أن تترك لنا عنواناً، وانسلّت الرياح من بين الجدران الحجرية، وانسابت على الأقدام، وباتت السماء لا ترحم. وتوسّعت مجالات الصمت في جزر البليار.

كان أبيقور يحصر الوجود الإنساني في حدود الحاضر ويدعو إلى الحفاظ على المتعة البسيطة. هل ينبغي تفضيل المتعة على السعادة؟ بدلاً من طرح مسألة مدّة صلاحية الحبّ، هل الاستمتاع باللحظة هي الوسيلة الفضلى لإدامته؟ سوف نكون صديقين. صديقان يمسكان بيدي بعضهما، صديقان يسيران تحت الشمس، ويتزلّجان بمزالج ويضمّان بعضهما برقّة وحنان على جدار فيلا وهما يستمعان إلى موسيقى آل غرين، ولكنّنا مع ذلك صديقان.

بارك نهارٌ بديع الذكرى السنوية لزواجنا. ذهبنا إلى شاطئ البحر وسبحنا، ونمنا سعيدين في بيت الفرح. تعرّف عليّ النادل الإيطالي الذي كان يعمل في الكشك الصغير، فتقدّم نحوي وألقى عليّ التحيّة باللغة الإنجليزية:

- مرحباً صديقي مارك مارونييه!

فأجبته قائلاً:

- لقد مات مارك مارونييه. لقد قتلتُه. من الآن فصاعداً لم يعُد هناك سواي هنا في هذا المكان وأنا أُدعى فريديريك بيغبيديه.

لم يسمَع شيئاً ممّا قلته بسبب الموسيقى الصاخبة التي كانت تصدح في المكان. تقاسمنا بطيخة وكوباً من الآيس كريم. أعدتُ ساعتي إلى يدي. لقد أصبحتُ أخيراً نفسي، متصالحاً مع الأرض والزمن.

ثمّ حلّ المساء. بعد عودة إلى حانة آنسيلمو لكي نشرب كأساً من الجين-كاس ونحن نستمع إلى صخب ارتطام تموّجات المياه بالرصيف البحري، عدنا إلى الكازا.

كان الليل قد أُنير بضوء النجوم والشموع. أعدّت أليس طبقاً من سلطة الأفوكاتو بالطماطم. أمّا أنا فقد أشعلتُ عود بخور. كان المذياع يبثُّ بصوتٍ مَشُوبٍ بالأزيز أسطوانة قديمة لأغاني الفلامنغو. وكانت قطع أضلع الغنم تُشوى على

المشواة. وكانت السحالي تختبئ في الشقوق الفاصلة بين البلاط. كفّت الصراصير عن الصرصرة وأغلقت أفواهها دفعة واحدة. جلست أليس بالقرب منّي وهي تبتسم بحبّ. شرب كلٌّ منّا قنينتَي نبيذ وردي. ثلاث سنوات! كان العدّ التنازلي قد بلغ نهايته! ما لم أفهمه هو أنّ عدّاً تنازلياً يُعتبَر بدايةً. في نهاية عدٍّ تنازليّ، هناك صاروخٌ يُطلَق. يا للهول! الفرح! رائع! وأنا الذي كنتُ أقلقُ مثل أبله!

ما هو رائعٌ وخياليّ في الحياة، هو أنّها تستمرّ. تَعانَقنا وتبادلنا القبل ببطء وهدوء وجسدانا متّحدان تحت القمر البرتقالي ونحن نُصغي إلى المستقبل.

نظرتُ إلى ساعة يدي: كانت تُشير إلى الحادية عشرة وتسعٍ وخمسين دقيقة مساءً.

فيربييه - فورمينتيرا، 1994-1997.

مكتبة
t.me/t_pdf

تعيش البعوضة يوماً واحداً، والوردة ثلاثة أيام.
يعيش القطّ ثلاث عشرة سنة، والحب ثلاث سنوات. هذه سنّة الحياة.

«الحبّ معركة خاسرة سلفاً.

في البداية، يكون كلّ شيء جميلاً، حتى أنت. تُصاب بالدهشة ولا تصدّق أنّك عاشقٌ إلى ذلك الحدّ. يحمل كلّ يوم حمولته الخفيفة من المعجزات. تتصوّر أن لا أحد على وجه الأرض قد عرف أبداً هذا القدر من السعادة. السعادة موجودة وبسيطة، فهي بكلّ بساطة عبارة عن وجه.

في السنة الثانية، تبدأ الأمور تتغيّر تدريجياً فتصبح حنوناً، بعد أن كنتَ عاشقاً. تدافع عن الزواج أمام أصدقائك وزملائك العُزَّاب الذين لا يعودون يتعرّفون عليك، ممتنعاً عن النظر إلى الآنسات النَّضِرات اللواتي يُزِنّ الشارع.

في السنة الثالثة، لا تعود تُحجم عن النظر إلى الآنسات النَّضِرات اللواتي يُزِنّ الشارع. ولا تعود تتكلّم مع زوجتك. تمضي ساعات كاملة معها في المطعم بالإصغاء إلى أحاديث الجالسين إلى الطاولات المجاورة. تبدأ بالإكثار من الخروج من البيت والعودة في وقتٍ متأخّر لكي تتجنّب واجبكَ الزوجي».

هل يدوم الحبّ حقاً ثلاث سنوات؟

فريدبريك بيغبيديه: كاتب، ناقد أدبي، مقدّم برامج، ومخرج سينمائي فرنسي. تُرجمت رواياته إلى أكثر من ثلاثين لغة ونالت العديد من الجوائز العالمية. **الحب يدوم ثلاث سنوات** من رواياته الأكثر شهرة، وقد استوحاها من حياته الخاصة وحوّلها إلى فيلم سينمائي، مكرّراً النجاح الذي حقّقه الكتاب.

ISBN 978-9953-68-917-3

المركز الثقافي العربي
الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com